مقاصد البلاغة العربية
دراسة تأسيسية

إعداد

د/ علي محمود عباس موسى

قسم البلاغة والنقد- كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بقنا- جامعة الأزهر- مصر

مقاصد البلاغة العربية دراسة تأسيسية

علي محمود عباس موسى
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا، جامعة الأزهر، مصر
البريد الإلكتروني: abba٣٤٧٨٦@gmail.com

الملخص:
هذه الدِّراسَة اتجهت صوب تبيان مَقاصِد البلاغة العربيَّة الرَّئيسة ، وقد وقفت عند مقاصِد خمسة، وذلك على النَّحْو الآتِي :
المقصد الأوَّل والأهمّ : الوُقوف عَلَى مَراتِب النَّظم العَالي سبيلا إلى إدراك الإعجاز البياني لنَظم كِتاب ربِّنا ــ عزَّ وجلَّ ــ وسنَّة رسولنا الكريم صلَّى الله عليه وسلَّم .
المقصد الثاني : تناسُب البيان الفَصيح لمُقْتضاه .
المقصد الثالث : تربية الذَّوق وتنمية الملَكات .
ذلك لأنَّ فنُون البلاغة إحدى الآليات التي تُعين كل مبين علَى التعبير الأنسب عمَّا يختلج النَّفس والفؤاد سَواء أكان المُعبَّر عنه مسْموعا أم مقْروءا .
المقصد الرابع : إصابة مواقع الاقتناع من عقل المخاطب .
المقصد الخامس : تحقيق الإمتاع النَّفسيّ والتأثير العاطفيّ .
والحاصل أنَّ : تحقيق البيان شعرا كان أو نثرا لمقاصده المرجوة أمارة واضحة على بلوغه حدّ التمام ؛ لأنَّ ميزان البيان التَّام الذي به تقاس قوة الكلام أوضَعْفا هو مقدار ما يُحقّقه مِن مقاصِده وغاياته .

كلمات مُفتاحية : المقاصِد الرَّئيسة ــ البلاغة العربيَّة ــ رُتب البيان ــ الإعجاز ــ المَلَكة والذَّوق ــ الإقناع والإمْتاع .

The purposes of Arabic rhetoric, a foundational study

Ali Mahmoud Abbas Musa
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Boys in Qena, Al-Azhar University, Egypt
Email: abba٣٤٧٨٦@gmail.com

Abstract

This study was directed towards clarifying the main objectives of Arabic rhetoric, and it focused on five objectives, as follows:

The first and most important goal: to stand on the levels of the higher order is a way to realize the rhetorical miracle of the systematization of the Book of our Lord, the Mighty and Sublime, and the Sunnah of our Noble Messenger, may God's prayers and peace be upon him.

The second objective: The eloquent statement fits what is required.

The third objective: Raising taste and developing faculties.

This is because the arts of rhetoric is one of the mechanisms that help each manifest to express the most appropriate expression of what stirs the soul and the heart, whether it is expressed by listening or reading.

Fourth objective: Injuring the sites of conviction from the addressee's mind.

The fifth objective: achieving psychological enjoyment and emotional impact.

To sum up: the realization of the statement in poetry or prose for its desired purposes is a clear indication that it has reached the limit of completeness. Because the scale of the complete statement by which the strength of speech is measured and weaker is the amount of what it achieves of its purposes and objectives.

Keywords: The Main Objectives - Arabic rhetoric - Ranks of Eloquence - Miraculousness - Wit and taste - Persuasion and Pleasure.

قَالَ أصْحَابُ المنْطِقِ : حَدُّ الإنْسَانِ :
الحَيّ النَّاطِقِ ؛ فَمَنْ كَانَ في المنْطق أعْلَى رُتبةً ، كَانَ بالإنْسَانيَّةِ أَوْلَى .
العمدة لابن رشيق ١ / ٢٤٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمَة البَحْث

الحَمدُ لله رب العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الخلْق سيِّدنا مُحمَّد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تبعهم بإحْسان إلى يوم الدِّين .

ربِّ اكتُب لِي مِن الفَلاح نَصِيبًا ، ومِنَ التَّوفيق قدرًا ، ويَسِّر لي ، وأعِنِّي ، واشرَح صَدْري ، واجْعل أعمالِي كلَّها خالِصَة لوَجْهك الكَرِيم ، برَحْمتك يا أرْحم الرَّاحمينَ .

أمَّا بعد

تَتبدَّى أهميَّة كلّ علم مِن خِلال النَّظر في المقاصد الرَّئيسة ، التي تكشف عن دوافع الدَّارسين وبواعثهم ؛ لأنَّ شرف العِلم وعظَمته ترشد إليه مقاصده ومراشده ، ويبين عندها قدره وشأنه ، ومِنْ ثَمَّ رأينا كيف كان لكلّ علمٍ مِن العلوم طلابه ومريدوه ، فطالب تقويم اللسان والتحرُّز مِن اللحن في الكلام ، يقصد علم النَّحو ، وطالب تمييز الشِّعر الصَّحيح مِن الزائف يقصد فحسب علم العروض ، ومُوسيقى الشِّعر ، وهكذا دَوَالَيكَ .

وعِلْم البلاغة العربيَّة جليل المقاصد ، حَسَن الغايات ، لا ينْفكّ أبدًا عن ذَوي الأفْهام النَّيّرة رجاه ، لارتباط بعض مقاصده بنفي القول ببشرية القرآن الكريم ، وأنَّه مِن عند محمد ــ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ــ ومِن ثَمَّ يقف متيقِّنا الحَصِيف المتذوِّق المُؤيّد بعون الله ، والمُتفضَّل عليه بأسباب هداية البَيان والرَّشاد ، على صُوَر الإعجاز البياني لكتاب ربِّنا ــ عزَّ وجلَّ ــ النَّاطقة بأنَّه تنزيل مِن حَكيم حَمِيد .

فَهذه الدِّراسَة تتَّجه نحو تبيان مَقاصِد البلاغة العربيَّة الرَّئيسة ، والتي يُمكِن عدّها في مقاصِد خمسة تشكِّل مَباحِث الدِّراسَة على النَّحْو الآتِي :

المقصد الأوَّل والأهمّ : الوُقوف عَلَى مَراتِب النَّظم العَالي سبيلا إلى إدراك الإعجاز البياني لنَظم كِتاب ربِّنا ــ عزَّ وجلَّ ــ وسنَّة رسولنا الكريم صلَّى الله عليه وسلَّم .

المقصد الثاني : تناسُب البيان الفَصيح لمُقْتضاه .

المقصد الثالث : تربية الذَّوق وتنمية الملَكات .

المقصد الرابع : إصابة مواقع الاقتناع من عقل المخاطب .

المقصد الخامس : تحقيق الإمتاع النَّفسيّ والتأثير العاطفيّ .

هذا ، وقد سُبِقتْ هذه المقاصِد (المباحث) بمقدِّمة أَبنتُ فيها أهمية البحث في هذا الموضوع ، ودوافع البحث ، وخطته ، ومنهجه ، وقد تلاها (تمهيد) خُصَّ لتبيان مفردات عنوان البحث ، وكان ذلك في محورين اثنين:

المحور الأوَّل : في شرح وتبيان كلمة (المقاصد) .

المحور الآخر : في الوقوف ــ بإيجاز ــ على حدّ كلمة (البلاغة) في اللغة والاصطلاح ، وتبيان المَنهج الأمثل والأوفق بالدَّرس البلاغيّ ، الذي مِن شأنه توضيح مَعْدن النّصوص الأدبيَّة والكَشْف عن مرْتبتها ، ومَدَى إحْسانها ، وتوفيق مُنشِئها .

فمعالجة مَسائل هذا العِلم الشَّريف تقف بصاحبها ــ بعد عون الله وتوفيقه ــ على مقاصد ــ كما سنرى ــ سَامية ، أدناها اتصاف بيان صاحبها بصفة التأثير في المتلقي ، فالبيان يَبذّ مثله بمقْدار أثره في نفْس المتلقي ورُوحه ، وعلى الدَّارس المتذوِّق أنْ يَتلمَّس ــ مَهْما كابَد ــ أسباب التأثير في البَيان الذي يترك أثرا في نفسه وروحه وسمعه ، ويفصلها واحدة واحدة ؛ إذ إنَّ التَّأثير النفسي أصدق ميزان ، وأدلّ دليل على فصاحة

صاحب البيان ، وبلاغة بيانه ، وكيف لا والآحاد الكثيرة مِن الناس لا تؤثر خطاباتها على كثرة ما تتكلَّم ؟ في حين يدهشك الآخر ويستولي على الوجدان ، ويسْترقّ الأفهام ، ويأذن لبيانه أنْ يلِج عقلك وفؤادك مِن دون طَرق أو استئذان ، بل يلج عنوة من دون أن تملك النَّفس ردَّه أو عدم السماح له ، وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء .

هذا ، وقد كان مِن بين الأسباب التي دَفعت لمُعالجة هذا الموضوع دفعا ما يأتي :

أولا : مُحاولة إجابة النَّفس عن بعض تساؤلاتها : (هل للبلاغة العربية مقاصد رئيسة كشتَّى العلوم ؟ وما هي تلك المقاصد ؟ وهل يَتأتَّى حَصْرها ؟ وهل وقف عندها علماؤنا ؟ ؟ و.. إلى غير ذلك من التساؤلات)

ثانيا : حَاجَة المكتبة البلاغيَّة إلى دِراسة وافية تُؤسِّس للمقاصد الرَّئيسة للبلاغة العربية .

ثالثا : التَّأكيد علَى مَدَى شَرَف البَيان العَربيّ ، وتِبيان فرط الحاجَة إلى مُدارسَة عِلْم البلاغة العربية ، وأنَّ إدراك مقاصد البيان بوجه عام يجب أنْ تكون غاية مَنْشودة لكلّ مُتكلِّم .

رابعا : بَكارَة المَوضوع ، فلم يَسْبق هذه الدِّراسة ــ فيما أعْلَم ــ قلَم جَادّ مُخْلص ، يُمِيط اللثام ــ في دراسة مُستقلَّة ــ عن مَقاصِد عِلم البلاغة الشَّريف ، مع بالغ تطلُّع النُّفوس ، وشدَّة الحاجَة إلى ذلك .

وقد كان بحث الدكتور / محمد بركات حمدي ، المدرس بكلية الآداب بالجامعة الأردنية ، والذي جاء في عدّة صَفحات يسِيرة ، والذي جاء بعُنوان: (مقاصِد البلاغة عند السَّكاكيّ) استعراضًا ــ في إجمال شديد ــ للأبواب والفنون البلاغيَّة التي تعرَّض لها السَّكاكي ــ رحِمَه الله ــ وتبيانا

لمنهجه مع الشَّواهد القرآنية والشعرية وغيرها ، في كتابه : (مفتاح العلوم) فحَسْب ، فلم يعرِض لا من قريب ولا من بعيد لمقاصِد البلاغة العربية ، التي تكشِف عن دَوَافع الدَّارسين وبواعِثهم ، فليس ثمَّتَ بين الموضوعين تلاقٍ بحال مِن الأحوال .

هذا ، وقد كان المنهج الوصفيّ التحليلي مُتَّكأ هذه الدِّراسة ، ويُمكن بيان ذلك وتفصيله في عدَّة أُمور ، على النَّحو الآتِي :

أولًا : مُحَاولة الوقوف على المَقاصِد الرَّئيسة لمُدارسة البلاغة العربيَّة ، والتي بسببها كان علم البلاغة العربيَّة مِن أشرف العُلُوم وأجلّها ، وذلك مِن خِلال تتبُّع تُراث أئمَّتنا في الماضي والحاضر .

ثانيًا : مُحاولة التأصيل العلميّ الصحيح لتلك المقاصد مِن التُّراثين : (النقدي والبلاغي) لعلمائنا قديمًا أو حديثًا .

ثالثًا : مُحاولة الوقوف على بعض ألوان البيان العربيّ ، مِن خلال شَواهدها الفصِيحة ، بغية إبراز تلك المقاصد في صُوَر لا يُخطئها المُتأمِّل بحال .

رابعًا : كان انتخاب بعض الشَّواهد وعرْضها عَرْضا كُلِّيا ضروريا ، حتَّى تتمكَّن هذه الدَّراسة من عَرْض مَغْزاها ومُؤدَّاها مَصْحوبا بما يُدعّمها ، وفي ذاك المَزْج بين النَّظرية والتطبيق ضرب مِن الإمْتاع والإقناع في آنٍ واحِد .

خامسًا : التأكيد على أنَّ لكلّ بيان مقاصد خاصة مَرْكُوزة في نفس صاحبها ، وأنَّ هذه الدِّراسة تحاول فحَسب الوقوف على مقاصد علم البلاغة الكليَّة التي يجب أن يُوسَم بها كلّ بيان فصيح .

فإذا كانت العربية ــ رفع الله شأنها ، وشأن منسوبيها ــ " يُراد منها معرفة مقاصد العرب مِن كلامهم وأدب لغتهم ، سواء حصلت تلك المعرفة بالسجية والسليقة ، كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين

ظهرانيهم ، أم حصلت بالتلقِّي والتعلُّم ، كالمعرفة الحاصلة للمولدين الـذين شافهوا بقية العرب ومارسوهم والمولدين الذين درسـوا علـوم اللسـان ودونوها .

إنَّ القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقا لفهم معانيه ، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم ، لمن ليس بعربيّ بالسليقة ، ونعني بقواعد العربية : مجموع علوم اللسان العربي ، وهي : متن اللغة ، والتصريف ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، ومن وراء ذلك استعمال العرب المُتّبع مِن أسـاليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم .. " [١]

إذا كان كذلك ، فإنَّ البلاغة العربية خاصَّة مِن بين فروعها تفتش بـدأب ، وتنظر بعين فاحِصة لذلك البيان الذي نزل مُتحدِّيا له أعظَم بيان وأبلغـه ، وهو القرآن الكريم ، فتراها تتخذ مِن سَـنَن العَـرَب القوليَّـة ، ومُتابَعـة أعرافهم التي كانوا عليها ، وما يتَّسِق كذلك مع العادَة والطَّبـع المُسـتقيم معيارا للفصاحة والبلاغة في كلّ موضع .

إنَّ قومًا كأهل السِّياسة والوعظ والقانون وغيرهم مِمَّن يُخاطبون مواقع العقل ومَدارك الحسّ والشُّعور مِن مُخاطَبيهم جدير بهـم أن يلتفُّـوا حـول مُدارسة علم البلاغة ، أو يقتصرون على بعض ألـوان وأسـاليب منهـا ، فمرماهم عنده ، ومقاصِدهم مَرهون فلاحها بمقدار ما يَبْلغـون مِـن علـم البلاغة ، فَعلم البلاغة سيكون له أثر بَيِّن عليهم إنِ امتزج مَـع علُـومهم ومعارفهم .

---

(١) التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ١ / ١٨ ــ ط : دار سحنون للنشر والتوزيع ــ تونس ــ ١٩٩٧ م .

هذا ، وسيظلّ بيان النَّاس على تَنوُّع لُغاتهم ، وأحْوالهم في الفصَــاحة وُجُودا أو عَدَما ، مَحَطّ الأنظار ومرماها ؛ لأنَّ بيان النَّاس وحــدَه النَّافــذة الكُبرى ، والمُترجِم الدالّ على ما في العقل والفؤاد ، فلم يَفُتّ فــي عَضُــد الدِّراسة أنَّها جعلت المقاصِد مُرادها وغايتها ، فــ " علوم العربية وآدابها ، لا تزال كالمَناجِم النَّفيسة المُغْفلة ، لم تُستَخرج ودائعها " (١)

ويجِب في ظنِّي القاصِر أنْ تتجدَّد معرفة مقاصد البيان الفصيح كلّ حين ، حتَّى يقف البليغ وكلّ مَن شُقّ فاهُه مِن بَني آدَم ــ عليه السَّلام ــ على ما يجب أن يتَّسِم به بيانه الذي يكُون مِرآة عقله وفؤاده مَع مُخاطَبِيه ، بُلَغاء كانوا أم مِن العامَّة .

هذا ، والحمد لله ربِّ العالمين ، وصلَّى الله وسلَّم على سيدنا محمّــد ، وعلى آله وصــحبه أجمعــين . ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٢)

---

(١) الإعجاز البلاغي ــ دراسة تحليلية لتراث أهل العلم ــ د / محمد محمد أبو موسى ص ٨ ــ ط : مكتبة وهبة القاهرة ــ ط : ثانية ــ ١٤١٨ ه ــ ١٩٩٧ م .

(٢) سورة آل عمران : آية ٨ .

التَّمهيد

حمل التَّمهيد على عاتقه في هذِه الدِّراسة توضيح المُفردات التي اشتمل عليها عُنوان البَحث ، وذلك في مِحورين اثنين :

المحور الأوَّل : في شرح وتبيان كلمة (المقاصد) .

المحور الآخِر : في الوقوف ــ بإيجاز ــ على حدّ كلمة : (البلاغة) في اللغة والاصطلاح ، وتبيان المَنهج الأمثل والأوفق بالدَّرس البلاغيّ ، الذي مِن شأنه توضيح مَعْدن النّصوص الأدبيَّة والكَشْف عن مرْتبتها ، ومَدَى إحْسانها، وتوفيق مُنشِئها .

أولًا : المقصود بكلمة المقاصد :

يَبرز جليًّا معنى كلمة المَقاصد التي تعنيها هذه الدِّراسة في قول ابن جني ــ رحمه الله ــ : " أَصل (ق ص د) ومواقعها في كلام العرب : الاعتزام ، والتوجُّه ، والنهودُ ، والنهوضُ نحو الشيء ، على اعتدال كان ذلك أَو جَوْر ، هذا أَصله في الحقيقة ، وإنْ كان قد يخص في بعض المواضع بقصد الاستقامة دون الميل ، أَلا ترى أَنك تَقْصِد الجَوْرَ تارة ، كما تقصد العدل أُخرى ؟ ، فالاعتزام والتوجُّه شامل لهما جميعاً " (١)

وقد تَحدَّث الطَّاهِر بن عاشُور ــ رَحِمَه الله ــ عن مقاصِد الشَّريعة ، فقال : " هي عبارة عن الوقوف على المعاني والحكم الملحوظة للشارع في

---

(١) لِسان العرب لابن منظور الأفريقي المصري ــ مادة (قصد) ــ ط : دار صادر ــ بيروت ــ ط : أولى ــ من دون تاريخ .

ضاقت بي السبل ، ولم أتمكن من الوصول إلى كتاب ابن جني الذي بين فيه مفهوم المقاصد ، كما نقل عنه ابن منظور .

جميع أحوال التشريع أو معظمها ، وتدخل في ذلك أوصاف الشَّريعة ، وغايتها العامة ، والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها وكذلك ما يكون من معان من الحكم لم تكن ملحوظة في سائر أنـــــواع الأحكام ، ولـــــكنَّها ملحوظة في أنواع كثيرة منها " [١]

فمقاصد العلوم في ظنِّي يُقصَد بها في أخْصر لفظ :أهدافها الكلية التي تحاول كلّ فنون العلم صغيرها وكبيرها على تحقيقها والوصول إليها ، فموضوع كلّ عِلم يبرز جليًّا في مقاصده .

وتتبدَّى أهمية معرفة مقاصد العلوم في قول ابن رُشد : " مَن لا يعرف الغاية التي ينشدها فهو بالضرورة لا يقدر أن يعرف ما سَينتهي إليه سعيه[٢]

فكلّ العلوم يجب أن تكون مقاصِدها مقرَّرة في الأذهان ومؤكَّدة ، وفي الظَّنّ أنَّ أوَّل ما يجب معرفته عند الشُّروع في طلب أي علم هو المقاصِد والمراشِد ، كي يسير القاصِد بحقّ على هُدى وبصيرة مِن أمره .

هذا ، ودرس المَقاصد يتناغم إلى حدّ كبير مع باب الأصُول الكلية (٣)

---

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية للشيخ الطاهر بن عاشور ــ تحقيق ومراجعة : محمد الحبيب ابن الخوجة ٣ / ١٦٥ ــ ط : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ــ قطر ــ ١٤٢٥ ه ــ ٢٠٠٤ م .

(٢) الضروري في السياسة لابن رشد ــ مختصر كتاب السياسة لأفلاطون ــ نقله عن العبرية إلى العربية د / أحمد شحلان ص ١٤٢ ــ ط : مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : أولى ــ ١٩٩٨ م .

(٣) باب دقيق ، وفيه كبير فائدة ، أرشد إليه شيخنا الحبيب الدكتور / علي عيسى ــ متَّعه الله بالصِّحة والعافية ونفعنا بعلمه ــ وكان لي فيه نصيب ببحث نشرته

؛ إذ بين البابين عُمُوم وخُصُوص ، وكم لهذا الباب مِن أهمِّية ، ويحتاج إلى مزيد مِن الدِّراسات البلاغيَّة ، يقول السَّعدي ــ رحمه الله ــ (ت ١٣٧٦ هـ) : " ومعلوم أنَّ الأصول والقواعد للعلوم بمنزلة الأساس للبنيان ، والأصول للأشجار ، لا ثبات لها إلا بها ، والأصول تبنى عليها الفروع ، والفروع تثبت وتتقوَّى بالأصول ، وبالقواعد والأصول يثبت العلم ويقوى ، وينمى نماء مطردا ، وبها تعرف مآخذ الأصول ، وبها يحصل الفُرقان بين المسائل التي تشتبه كثيراً ، كما أنَّها تجمع النظائر والأشباه التي من جمال العلم جمعُها ، ولها مِن الفوائد الكثيرة غير ما ذكرناه " (١)

وهكذا يبين للنَّاظر فضْل معرفة هذه المقاصد ، وما تنْطوي عليه مِن فوائد جمَّة ، والله تعالَى أعلم بالصواب .

ثانياً : تعريف البلاغة ، والمنهج الأمثل للدَّرس البلاغي:

يَدور مَعنى كلمة البلاغة في العُرف اللغويّ ، حول الوصول والانتهاء ، ففي اللسان : " بَلَغَ الشيءُ يَبْلُغُ بُلُوغاً وبَلاغاً وصَلَ وانْتَهَى .. وتَبَلَّغَ بالشيء وصَلَ إِلى مُرادِه ، وبَلَغَ مَبْلَغَ فلان ومَبْلَغَتَه (٢) فالبلاغة : تُنْبئ عن

حولية كلية اللغة العربية بأسيوط عام ٢٠١٥ م ، تحت عنوان : (الأصول الكلية لأغراض القاعدة البلاغية بين تراث أهل العلم والبيان العالي ــ التعريف بالإشارة أنموذجا) .

(١) طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول ــ مختارات من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم ــ جمع : عبد الرحمن بن ناصر السعدي ــ ص ٥ ، ٦ ــ ط : دار البصيرة ــ الإسكندرية ــ د ت .

(٢) لسان العرب لابن منظور ــ مادة بلغ .

الوصول والانتهاء ، يوصف بها الكلام والمتكلِّم فقط ، دون المُفرد [١]

وأمَّا بلاغة الكلام في اصطلاح البلاغيين : فهي مُطابقته لمُقتضى الحال مَع فصاحته [٢] فالمُتأمِّل للتعريف يتبدَّى له فرط عناية البلاغيين ، ومَدى انشغالهم بأمر المطابقة ، وهي بلا شك إحدى مقاصِدِ البلاغة ، كما سَيبين فيما هو آتٍ مِن البحث .

أمَّا الإمام عبد القاهر ــ رحِمه الله ــ فيقول في معرض حديثه عن البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة : " ومنَ المعلوم أنْ لا معنى لهذه العباراتِ وسائرِ ما يجري مَجراها مما يُفْرَدُ فيه اللفظُ بالنعتِ والصفةِ وينسبُ فيه الفضلُ والمزيَّةُ إليه دونَ المعنى غيرَ وصفِ الكلام بحسنِ الدَّلالة وتمامِها فيما له كانت دَلالةٌ ثم تبرُّجها في صورةٍ هي أبهى وأزْيَنُ وآنقُ وأعجبُ وأحقّ بأنْ تستوليَ على هَوى النفس وتنالَ الحظَّ الأوفرَ من ميل القلوب وأولى بأن تطلقَ لسانَ الحامدِ وتُطيلَ رُغمَ الحاسد ، ولا جهةَ لاستعمال هذه الخصالِ غير أنْ يُؤتَى المعنى من الجهةِ التي هيَ أصحُّ لتأديتهِ ويختارُ له اللفظُ الذي هو أخصُّ به وأكشَفُ عنه وأتمُّ له وأَحرى بأن

---

(١) معجم التعريفات للسيد الشريف الجُرجاني ــ تحقيق ودراسة : محمد صديق المنشاوي ص ٤٣ ــ ط : دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير ــ القاهرة ــ مِن دون تاريخ .

(٢) الإيضاح للخطيب القزويني ١ / ١٢٢ ــ ضمن شروح التلخيص ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ من دون تاريخ .

يُكسِبَه نُبلاً ويُظهرَ فيه مزيَّةً[١]

والمُتأمِّل لكلام الإمام عبد القاهر الجرجاني يجد أنَّ حديثه كان أشمل وأوقع ، ولو أنَّه جاء في عِبارات مُركَّزة لعلق في الأذهان والأفئدة .

هذا ، ولا شك أنَّ حاجَة الكاتب ، وكلّ مُبين عمَّا في ضَمير نفْسه ، إلى علُوم البلاغة ، كحَاجة الإنْسان إلى الطَّعام والشَّراب ، يقول صَاحب صُبح الأعشى : " لمَّا كانت صناعة الكتابة مبنية على سلوك سبل الفصاحة واقتفاء سنن البلاغة ، وكانت هذه العلوم هي قاعدة عمود الفصاحة ومسقط حجر البلاغة ، اضطر الكاتب إلى معرفتها ، والإحاطة بمقاصدها ليتوصل بذلك إلى فهم الخطاب ، وإنشاء الجواب ، جارياً في ذلك على قوانين اللغة في التركيب ، مع قوة الملكة على إنشاء الأقوال المركبة المأخوذة عن الفصحاء والبلغاء ، من الخطب والرسائل والأشعار من جهة بلاغتها وخلوها عن اللكن ، وتأدية المطلوب بها ، وتكميل الأقاويل الشعرية نثراً كانت أو نظماً ، في بلوغها غايتها وتأدية ما هو مطلوب بها ، وأنها كيف تتعين بحسب الأغراض لتفيد ما يحصل بها من التخيل الموجب لانتقال النفس من بسط وقبض ، والشيء يذكر بضده ، فيذكر المحاسن بالذات والعيوب بالعرض " [٢]

---

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ــ تح : محمود محمد شاكر ص ٤٣ ــ ط : مطبعة المدني ــ القاهرة ــ صف الكتاب بطريقة الجمع التصويري : مكتبة الخانجي بالقاهرة .

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ــ تح : د / يوسف علي طويل ١ / ٢١٩ ــ ط : دار الفكر ــ دمشق ــ ط : أولى ــ ١٩٨٧ م .

ففضل معرفة فنون البلاغة على صاحب البيان عظيم ؛ لأنَّه " غير خاف أنه إذا مهر فيه وعرف طرقه ، أتى في كلامه بالسِّحر الحلال ، صاغ من ألفاظه ومعانيه ما يقضي له بالفصاحة التامة ، والبلاغة الكاملة ، من وجوه تحقيق الكلام ، وتحسينه وتدبيجه وتنميقه ، وإذا فاتته هذه العلوم أو كان ناقصاً فيها نقصت صناعته بقدر ما ينقص من ذلك ، ثمَّ كما يحتاج إلى هذه العلوم بطريق الذَّات ، كذلك يحتاج إليها بطريق العرض مِن جهة المعرفة بالبلغاء الذين يضرب بهم المثل في البلاغة .. وكمعرفة أئمة الصِّناعة : كالجُرجاني والرُّماني ، وكذلك المعرفة بالأسماء التي اصطلح عليها أهلها ، من الفصل والوصل والتشبيه كما تقدم والمقابلة والمطابقة وغير ذلك من أنواعها " [١]

فللبيان على صاحبه فضل لا يقارن ، يقول يونسُ بنُ حبيب : ليس لعييّ مروءة ، ولا لمنقوص البيان بهاء ، ولو حَكَّ بيافوخِهِ أَعْنَانَ السَّماء ، وقالوا أيضًا : البيان بصر ، والعي عمى [٢] وقال أصحاب المنطق : حدّ الإنسان : الحيّ الناطق ؛ فمَن كان في المنطق أعلى رُتبة ، كان بالإنسانية أولى [٣]

---

(١) السابق ١ / ٢٢٥ .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ــ تحقيق : عبد السلام محمد هارون ١ / ٧٧ ــ ط : مكتبة الخانجي ــ القاهرة . ط : سابعة ــ ١٤١٨ ه ــ ١٩٩٨ م .

(٣) العُمْدة في مَحاسن الشِّعر وآدابه ونقْده لابن رشيق القيرواني ــ تح : محمد محي الدين عبد الحميد ١ / ٢٤٢ ــ ط : دار الجيل ــ بيروت ــ لبنان ــ ١٤٠١ ه ــ ١٩٨١م.

والكلام في تبيان فضل البلاغة والبيان ، وإبراز وجه الحاجة إلى مدارسة علومها وفنونها ، يَستحيل حصْره ، فحَسْبي ما ذكرتُ ، والله تعالى أعلم .

المنْهَج الأمْثل للدَّرس البَلاغيّ :

الدَّرس البلاغيّ كغيره مِن العلُوم يتَّكئ على مناهج البحث العلمي المعروفة ، لكنَّ المُتأمِّل يجد أنَّ بعضها في الدَّرس البلاغي أوفق مِن بعض وأوقع ، فحاجة علم البلاغة قد تكون ملِحة لمنهج دون آخر .

ذكر أستاذنا الدكتور / محمود توفيق [١] ــ وهو مِن أكابر رجالات البلاغة العربية ــ أنَّ الإمام عبد القاهر الجرجاني قرَّر ضرورة المنهج التحليلي في شأن العلم بالبلاغة ، فهو مِن أكثر العلوم اقتضاء إلى التفصيل والتحليل ، فالبلاغة لا يكفي " أن تنصب لها قياساً ما ، وأن تصفها وصفاً مجملاً، وتقول فيها قولاً مرسلاً ، بل لا تكون معرفتها في شيء حتى تفصِّل القول وتحصِّل ، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم، وتعدها واحدة واحدة ، وتسميها شيئاً شيئا ، وتكون معرفتك معرفة الصَّنَعِ الحاذق ، الذي يعلم علم كل خيط من الإبرسيم الذي في الديباج ، وكل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطَّع ، وكل آجُرَّة من الآجُرّ الذي في البناء البديع " [٢]

والإمام عبد القاهر إذْ قرر فريضة المنهج التحليلي في النظر البلاغي والنقديّ، يقرر معه فريضة التأويل الموضوعي للسِّمات البيانية للخطاب ،

---

(١) نظرية النظم وقراءة الشعر عند عبد القاهر الجرجاني ــ د محمود توفيق محمد سعد ص ٤ ــ ط : اتحاد الكتاب العرب ــ من دون تاريخ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٧ .

ولا يقنع بالتعليلات والتوجيهات الانطباعية الذَّاتية التي لا تتولَّد مِن رؤية موضوعية لمقومات فصاحة الخِطاب [١]

وترى أستاذنا الدكتور محمود توفيق يقرِّر قوله بما ثبت أيضًا في تُراث الإمام عبد القاهر الجُرجاني عند قوله : " وجملة ما أردت أن أبينه لك : أنَّه لا بدَّ لكلّ كلام تستحسنه ، ولفظ تستجيده من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة ، وعلة معقولة ، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذلك سبيل ، وعلى صحة ما ادَّعيناه مِن ذلك دليل " [٢]

فالإمام عبد القاهر بنى منهجه في الوقوف على ما به تمام بلاغة الخطاب وفصاحته (أدبيته / شعريته) ، وما به عمود تلك البلاغة ، على التحليل والتفصيل ، وعلى التذوُّق والتأويل الموضوعي ، والتحاشي مِن الانطباع الذَّاتي غير القائم على معرفة موضوعية [٣] فتأتي أهمية هذين المَنهجين خاصَّة في الدَّرس البلاغيّ لفرْط مقدرتهما على التغلغُل في ثنايا النَّص الأدبي ، وتبيان أسباب الجَمال ، ومظاهره ، والله تعالى أعلم .

---

(١) نظرية النظم ص ٥ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٤١ .

(٣) نظرية النظم ص ٧ .

المبْحثُ الأوَّل :

الوُقوف عَلَى مَراتِب النظْم العَالي سبيلا إلى إدراك الإعجاز .

يَتشكَّل البَيان في نَفْس صَاحِبه ويتنوَّع ، تبعا لوجهته التي يقْصدها ، وهو المُخاطَب ، فالمُخاطَب المُتلقِّي هو وحده المَنوط بالبيان ، وقد رأينا في تُراث البلاغة العربية فرْط عنايتها بالمُخاطَب ، عناية لا تُوصف ، ولا تُحد بِحدّ .

هذا ، وللبيان مراتب : لكلّ مرتبة أو لكلّ نوع منها ، سمت خاص ، وآليات مخصوصة تناسبها ، هذه المراتب أو الأنواع أجمَلَها الدكتور / هنوش ــ أحسَن الله إليه ــ في ثلاث على النحو الآتي :

أولا : البيان العقلي : ونقصد به صورة البيان الذي تغلب عليه الطبيعة العقلية الاستدلالية وينبني بصورة خاصَّة من خلال الدَّلائل المكوِّنة للنَّص ، والتي يلجأ في الغالب في بنائها إلى قواعد التدليل في ربط العلاقات وبناء السِّياقات .

ثانيا : البيان النفسي : وهذا الصِّنْف يغلب عليه عرض المعاني النفسية والشعورية ، بما يرتبط لا بالدليل العقلي المحض ، وإنَّما بالخيالات قريبها وبعيدها ، وبالخوالج النفسيَّة ظاهرها وخفيها ، وبالعواطف إيجابيها وسلبيها ، وبالقيم صالحها وطالحها .

ثالثا : البيان الروحي : وهو الرُّتبة الأعلى مِن البيان ، لارتباطه بالمعاني الغيبية ، والتجليات الرُّوحانية ، وهو يَسْتوعب البيانين السَّابقين ويهيمن

عليهما [١]

هذا ، ولكلّ بَيان حالٌ مِن الحُسْن أو الرَّداءة ، والحُسن ــ وكذلك الرَّداءة ــ درجاتٌ متفاوتة ودركاتٌ ، لا يقف عليها ــ وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء ــ إلا المُكاشِف للبيان الفصِيح ، الخَبير بمعادن الكلِم ، المُطَّلع علَى قوانين العِلم.

ولا شكَّ أيضًا أنَّ بيان مَراتب النُّظوم المُختلفة مِن أجَلّ مَقاصِد البلاغة العربيَّة ، وأعلاها ، فالاطلاع على رُتَب البيان هو الكشْف الحقيقي لمعدن النُّظوم على اختلافها ، فهو نافذة واسعة يُشْرَف منها على خَصائص البيان وسِمَاته ، وإظهار كلّ أحواله وأوصافه ، وتفلية كلّ ذلك ، وتبيانها واحِدة واحدة ، فشأن البيان شأن المَعادن ، مِنها النَّفيس ومنها الرَّديء ، كَما أنَّ البيان حين يقف بجوار قرينه يبين جوهره في أكشف صورة وأظهر مرأى.

يقول الإمام عبد القاهر ــ رحمه الله رحمة واسعة ــ : " وجملة الأمر أنَّك لن تعلم في شيء من الصناعات علما تمر فيه وتحلي حتَّى تكون ممَّن يعرف الخطأ فيها مِن الصَّواب ، ويفصل بين الإساءة والإحسان ، بل حتَّى تفاضل بين الإحسان والإحسان ، وتعرف طبقات المُحسنين " [٢]

فهذا الباب محط اهتمام أرباب البيان ، ومِن ثمَّ فإنَّ لمدراسته أهميَّة عُظْمى ؛ إذ إنَّ " التفطُّن في رُتب البيان في موارد هذا النَّحو مِن الخطاب

---

(١) مَراتب البيان ودوائر التأويل . بحث صغير للدكتور / عبد الجليل هنوش ــ عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية ــ جامعة القاضي عياض ــ مراكش ــ ص ٤ ، ٥ ــ على موقع الرَّابطة المُحمدية للعلماء https://www.arrabita.ma/blog

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٧ .

في القرآن مِن مفاتيح الفهم ، وبوادىء مزيد العلم " [١]

ثمَّ إنَّ الوقوف على رُتَب البيان أوسع النَّوافذ وأقربها الذي يقودك ويسلمك طوعا أو كرها إلى حقيقة الإعجاز ، غاية البلاغة ونهاية درسها .

يقول الإمام الحرالِّيّ ــ رَحِمَه الله ــ : " فمَن تفطَّن إلى رُتب الخِطاب في القرآن بحسب أسماء الله وأطوار الخلق وتنزلات الأمر ورُتب تنامي القلوب في الرجوع إلى الله ورتب الأخلاق والأعمال ، وما يقابل ذلك من دركات البعد والبغض والطَّرد واللعن ، فتح الله له بابا إلى الفهم يجد به يقين تجربة إبانته، ووضوح صدق إنبائه عن كُنه الذوات ، ورتب التنزلات ، حتَّى إنَّ خطاب الإقبال ينتظم بخطاب الإعراض ، والغيبة بالحضور ، والاختصاص بالتعميم " [٢]

ولا أشكّ في إنَّ إدراك رُتب البيان هِبة الله لأهل القُرْب والصَّفاء . يقول الإمام الحرالِّيّ ــ رَحِمه الله ــ : " ولكل من تنزلاته العلية ظاهراً وباطناً أمر خاص ، ولكل أمر خلق ، يرد بيان القرآن لكلّ خلق بحسب كنه ذاته واختصاص رتبة قربه ومحل بعده " [٣]

هذا ، ومُدارسة رُتَب البَيان التي تنطلق من تحليل مكوِّنات العمل الأدبيّ تحليلا دقيقا تكشِف لك عن صنعة كلّ صاحب بيان ، وطريقة سَبكه ، فالعلماء " لم يريدوا حيث قالوا : إنَّ المعنى في هذا هو المعنى في ذاك ،

---

(١) تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير ــ تقديم وتحقيق : محمادي بن عبد السلام الخياطي ص ٤٢ ــ ط : مطبعة النجاح الجديدة ــ الدار البيضاء .

(٢) تراث أبي الحسن الحرالي ص ٣٣ .

(٣) السابق ص ٣٤ .

أن الذي تعقل من هذا لا يخالف الذي تعقل من ذاك ، وأن المعنى عائد عليك في البيت الثاني على هيئته وصفته التي كان عليها في البيت الأول ، وأن لا فرق ولا فصل ولا تباين بوجه من الوجوه ، وأنَّ حكم البيتين مثلا حكم الاسمين قد وضعا في اللغة لشيء واحد كالليث والأسد ، ولكن قالوا ذلك على حسب ما يقوله العقلاء في الشيئين يجمعهما جنس واحد ، ثمَّ يفترقان بخواص ومزايا وصفات كالخاتم والخاتم ، والشنف والشنف ، والسوار والسوار، وسائر أصناف الحلي التي يجمعها جنس واحد ، ثمَّ يكون بينها الاختلاف الشديد في الصّنعة والعمل " [١]

فاختلاف نظم الصُّورة [٢] واختلاف بنيتها التركيبية ، إنَّما يمثل ذلك طريقة الشَّاعر الخاصَّة ، ويبين ميسمه الذي يميزه عن غيره مِن ذوي جِنسه ، فهو المائز الرَّئيس الذي يُميِّز بين شعر وآخر ، فمستوى الإجادة في التعبير على قدر التأنُّق في النَّظم .

هذا ، وتدبَّر ما يقوله الإمام عبد القاهر الجرجاني يدلك في تقريب شديد إلى أنَّ وضع يدك على الفروق بين بيان وبيان هو أساس النَّظم ، بل يطلعك بتفصيل مُفصَّل على أشكال الاختلاف وطرائق التميُّز ، فيقول : " ... وإنَّما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصُّور والنّقوش ، فكما أنك ترى الرجل قد تَهَدَّى في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٥٠٧ .

(٢) تنوُّع المُشبَّه به في وصف كلام المحبوبة في العصر العباسيّ (دراسة تحليلية موازنة) للباحث ص ٧٦ ــ مجلة كلية البنات الإسلامية ــ جامعة الأزهر ــ فرع أسيوط ــ العدد السادس عشر ــ ١٤٤٠ ه ــ ٢٠١٩ م .

ثوبه الذي نسَجَ ، إلى ضرب من التخير والتدبُّر في أنفس الأصباغ ، وفي مواقعها ، ومقاديرها ، وكيفية مزجه لها ، وترتيبه إياها ، إلى ما لم يَتَهدَّ إليه صاحبه ، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب ، وصورته أغرب ، كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيهما معاني النحو، ووجوهه التي علمت أنَّها محصول النَّظم " [1]

فقوله ــ رَحِمَه الله ــ : (فكما أنَّك ترى الرجل قد تَهَدَّى في الأصباغ التي عمل منها الصُّورة والنقش في ثوبه الذي نسَجَ ، إلى ضرب من التخيُّر والتدبُّر في أنفس الأصباغ ، وفي مواقعها ، ومقاديرها ، وكيفية مزجه لها ، وترتيبه إياها ، إلى ما لم يَتَهدَّ إليه صاحبه) يرشد بتفصيل على أشكال الاختلاف بين النظوم المختلفة ، والتي تكون مناط المقارنة والموازنة والمفاضلة ، والتي يمكن عدّها في عدة أمور هي : (انتقاء مادة البيان مفردة كانت أو أسلوبا ، ووضع لبنة البيان موقعها الأنسب ، وإفراغ مقدار البيان الأشكل والأوقع ، وهذا باب واسع ، وطريقة المَزج والسَّبك بين لبنات البيان المختلفة (وهذا الأمر أدقّ مِن غيره ، فالأسرار كلّها في هيئة السَّبك وطريقة المَزْج ؛ إذ قد تكون المواد أو الآليات كلّها واحدة ، لكن السَّبك الجيد يكون له الأثر البعيد) ، والترتيب .

والإمام عبد القاهِر ــ رَحِمَه الله ــ هنا يشبِّه حال البيان بالأصباغ لخطورة أمر الأصباغ ، وأنَّ العَمل فيها ليس هينا ، فماذا لو وقف إمامنا ــ رَحِمَه الله ــ على طريقة إنتاج الدَّواء مِن المواد الكيماوية المُختلفة ، وهي شديدة الخطورة ؛ إذ تحوّل الدَّواء عند اختلاف مادته أو مقداره أو ... أو

([1]) دلائل الإعجاز ص ٨٨ .

... إلى مادة سامَّة تقتل مَن يتعاطاها ؟ فكذلك البَيان .

إنَّ الإمام عبد القاهر الجرجاني ــ رحمه الله ــ جعل الوقوف على حال المعاني ، وتبيان وجوه اتفاقها ، ومظاهر اختلافها الأساس الرَّئيس الذي يُظهر جوهر البيان ، ويبرز مرتبته ، ويبين فضله وشرفه ، فيقول :

" واعلم أنَّ غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته ، والأساس الذي وضعته ، أن أتوصّل إلى بيان أمر المعاني كيف تختلف وتتفق ، ومن أين تجتمع وتفترق، وأفصل أجناسها وأنْواعها ، وأتتبّع خاصّها ومُشَاعَها ، وأبين أحوالها في كرم مَنْصبها من العقل ، وتمكُّنَها في نِصَابه ، وقُرْب رَحِمِها منه ، أو بُعدها حين تُنسب عنه ، وكَوْنِها كالحَلِيف الجارِي مجرى النَّسَبَ ، أو الزَّنيم الملصَق بالقوم لا يقبلونه ، ولا يمتعضون له ولا يَذُبُّون دونه " (١)

ويتابع عبد القاهر القول مُبرزا أنَّ جَودة البيان في ذاته ، وأنَّ البيان المَصنوع لا يدوم حُسنه ؛ لأنَّ آثار الصَّنعة قد تذهب ، ولا تتبقى إلا مادته الرَّئيسة ، قبل التصوير والتشكيل وحينئذ يبين أصله ، وتظهر مرتبته التي هو بها خليق ، فيقول : " .. وإنّ من الكلام ما هو كما هو شريف في جوهره كالذهب الإبريز الذي تختلف عليه الصُوَر وتتعاقب عليه الصناعات ، وجُلَّ المعَوَّل في شرفه على ذاتهِ ، وإن كان التصويرُ قد يزِيد في قيمته ويرفع من قدره ، ومنه ما هو كالمصنوعات العجيبة من موادَّ غير شريفة ، فلها ما دامت الصورة محفوظةً عليها لم تنتقض ، وأثَر الصنعة باقيّاً معها لم يبطل قيمةٌ تغلو ، ومنزلة تعلو ، وللرغبة إليها انْصبابٌ ، وللنفوس

---

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ــ شرح وتعليق : د محمد عبد المنعم خفاجي ص ٩٠ ــ ط : مكتبة الإيمان ــ المنصورة ــ القاهرة .

بها إعجاب ، حتى إذا خانت الأيام فيها أصحابَها ، وضامَت الحادثاتُ أربابها ، وفجعتهم فيها بما يسلُب حُسْنها المكتسب بالصَّنعة ، وجمالَها المستفادَ من طريق العَرضِ ، فلم يبق إلا المادّة العارية من التصوير ، والطِّينة الخالية من التشكيل سقطت قيمتها ، وانحطت رتبتها ، وعادت الرَّغبات التي كانت فيها زُهداً ، وأوسعتها عيونٌ كانت تطمح إليها إعراضاً دونها وصدّا ، وصارت كمن أحظاه الجدُّ بغير فضلٍ كان يرجع إليه في نفسه ، وقدَّمه البخت من غير معنًى يقضي بتقدّمه ، ثم أفاق فيه الدهر عن رقدته ، وتنبّه لغلطته فأعاده إلى دِقّة أصله وقلّة فضله " (١)

ثمَّ يختم الإمام فكرته بالتنبيه على أنَّ الوقوف على حَال المعاني ، وتبيان وجوه اتفاقها ، ومظاهر اختلافها مفصلة أمر ليس يسيرًا ، فيقول : " وهذا غرضٌ لا يُنال على وجهه ، وطَلِبةٌ لا تُدرَك كما ينبغي ، إلا بعد مقدّماتٍ تُقدَّم ، وأصولٍ تُمهَّد، وأشياءَ هي كالأدوات فيه حقُّها أن تُجمع ، وضروبٍ من القول هي كالمسافات دونه يجب أن يُسَار فيها بالفكر وتُقْطَع " (٢)

هذا ، وقد جعل الإمام عبد القاهر الجُرجَاني الذَّوق والقريحة إحدى الأمور التي يُدرك بها رُتَب الكلام ، وصولا إلى الإعجاز ، فقال في معرض الحديث عن النَّظم ، وأنَّ مرده إلى الذَّوق : " .. ولسنا نستطيع في كشف الشبهة في هذا عنهم، وتصوير الذي هو الحق عندهم، ما استطعناه في نفس النظم ، لأنا ملكنا في ذلك أن نضطرهم إلى أن يعلموا صحة ما نقول ،

---

(١) السابق ص ٩٠ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٩١ .

وليس الأمر في هذا كذلك ، فليس الداء فيه بالهيِّن ولا هو بحيث إذا رُمْت العلاج منه وجدت الإمكان فيه مع كل أحد مسعفا ، والسعي مُنْجِحًا لأنَّ المزايا التي تحتاج أن تُعْلِمهم مكانها، وتصور لهم شأنها ، أمور خفية، ومعان رُوحانية أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها، وتحدث له علماً بها، حتى يكون مهيأ لإدراكها ، وتكون فيه طبيعة قابلة لها ، ويكون له ذوق وقريحة يجد لهما في نفسه إحساسا بأنَّ مِن شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة ، وممَّن إذا تصفح الكلام وتدبَّر الشعر فرَّق بين موقع شيء منها وشيء " [1]

ثمَّ إنك ترى الإمام عبد القاهر يقول ما يُنبئ عن أنَّ الذوق ركن ركين وأساس متين لعلم الفصاحة بوجه عام ، وتبيان رتب الكلام بوجه خاص :" .. ليس علم الفصاحة وتمييز بعض الكلام من بعض بالذي تستطيع أن تُفْهِمه مَن شئت ، ومتى شئت ، وأنْ لست تملك إذا من أمرك شيئا حتى تظفر بمن له طبعٌ إذا قدحته وَرِيَ ، وقلبٌ إذا أريته رأى ، فأمَّا وصاحبك من لا يرى ما تُريه ، ولا يهتدي للذي تُهديه ، فأنت معه كالنافخ في الفحم من غير نار ، وكالمتلمِّس الشمَّ من أخْشَم ، وكما لا تقيم الشعر في نفس من لا فوق له ، كذلك لا يفهم هذا الباب من لم يؤت الآية التي بها يفهم إلا أنه إنَّما يكون البلاء إذا ظن العادم لها أنه أوتيها ، وأنَّه ممَّن يكمل للحكم ، ويصح منه القضاء ، فجعل يخْبِط ويخْلِط ، ويقول القول لو علم غِبَّهُ

([1]) دلائل الإعجاز ص ٥٤٧ .

لاستحيى منه " [1] وهذا القول وحده كاف ، فرحم الله الإمام عبد القاهر الجرجاني ، وجزاه عن العلم وأهله خير الجزاء .

هذا ، ويخلُص الخَبير بمراتب الكلام ، وينتهي به الحال ، بمَعونة قوانين البلاغة العربية ، إلى الوقوف على أُولى عتبات الإعجاز ، حتَّى إذا ناله حظّ مِن فتوح العارفين أدرك بعض أسرار ما ينطوي عليه هذا الكتاب العزيز الخَالد.

إنَّ الإمام عبد القاهر الجُرجاني قطَع القول بأنَّه لا طريق لمعرفة إعجاز القرآن إلا بمعرفة فضل كلام على كلام ، وأنَّ الذي لا يعرف فضل كلام على كلام لن يستطيع أنْ يعرف فضل كلام الله على كلّ كلام وهذه حقائق ظاهرة ، والعلم بها مؤكَّد ، ولم أجد في علماء الأُمَّة بعد عبد القاهر مَن نَقَض حرفا مِن هذه الحقائق [2]

فالحقيقة التي لا مِراء فيها ، ولا شكَّ ، أنَّ البلاغة العربيَّة في مَكانَة سامِية ، وأنَّ جميع العلوم ــ مَهْما عظمت ــ في غِبطة وغَيرة مِنْها ؛ لأنَّها ــ مِن دُون تَحَيُّز ــ العلم الوحيد الذي يُدلِّل على صِدْق الوَحْي الشَّريف ، ويُبرهن علَى أنَّ القُرآن الكريم المُكرَّم مَن أُنزل عليه هو كلام ربّنا الذي لا يأتيه الباطِل مِن بين يديه ولا مِن خَلْفه .

---

(1) الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز والقول في الصَّرفة ، مطبوعة في ذيل دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ص ٦٢٦ .

(2) ورقة بحثية لشيخ البلاغيين في هذا العصر (أد / مُحمد محمَّد أبو موسى) بعنوان : كيف نستخرج موضوعاتٍ للبحوث العلمية ؟ ص ٣ ــ محرم ١٤٤١ ه ــ سبتمبر ٢٠١٩ م .

فالمُتورِّك بصِدق وعزم وإخلاص على إظْهار تلكَ الـدَّلائل القاطِعـة ، والمرابط في حَصَافة ويقين ودأَب على تِبيان تيك الأمارات الحاسمة سوف يلوح لا محالة في أفقه ، ويبدو في مرأى عينيه واضحا وضوح الشـمس أنَّه مِن المستحيل ــ وإن ابيَضَّ القَارّ ــ أنْ يكون هذا الكلام ــ وهو عجيب التأثير في النفس ــ بيانا بشريا ، مَهْمَا صار ، بل كيف يكون لبشـر مثـل ذلك البيان ، وفي كلّ موقع مِن سور القرآن الكريم تجـد أمـارة ووسـما ناطقينِ بأنَّه من الإعجاز المُعجِز بمكان على بني البَشر طُرًا ؟ فسبحان مَن القرآن بيانه وتبيانه ؛ إذ أودع فيه مِن أسراره ما يظلّ الدَّارسون إلـى أنْ يرث الله الأرض ومن عليها ، في دهشة تضلّ فيها عقول أولـي الألبـاب الرَّشيدة لعجيب ما اشتمل عليه ، وما احتوته سُوَره ، وإنْ بلغتْ مِن القِصَر مَبلغا ..

****

هذا ، ولقد أدرك علماؤنا في كل زمان وطيـد العلاقـة بـين البلاغـة والإعجاز ، فالبلاغة إحدى وسائل إدراك الإعجاز ، والإعجاز القرآني مُلْهم علم البلاغة الرَّئيس . فأبو هِلال العَسْكريّ (ت ٣٩٥ ه) يرى " أنّ أحـقّ العلوم بالتعّلم ، وأولاها بالتحفّظ بعد المعرفة بعد المعرفة بالله ــ جلّ ثناؤه ــ علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعـالى، الناطق بالحق، الهادي إلى سبيل الرّشد، المدلول به على صـدق الرسـالة وصحّة النبوة، التي رفعت أعلام الحقّ، وأقامت منار الدّين، وأزالت شـبه الكفر ببراهينها، وهتكت حجب الشّك بيقينها .

وقد علمنا أنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف، وبراعـة

التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمّنه مِن الحلاوة، وجلّله من رونق الطّلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعـذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك مِن محاسنه التي عجز الخلق عنهـا، وتحيّـرت عقولهم فيها " (١)

كَما أنَّ قضية الإعجاز كان لها بالغ الأثر في البلاغة العربية منذ الطَّور الأول ، ومِن ذلك : " أولًا : ظهرت أحكام نقدية عامة على لسان المـؤمنين والمشركين عند سماع القرآن ، هذه الأحكام هي التي استحالت على أيـدي البلاغيين إلى قواعد بلاغية قصد منها تكوين الذوق الأدبي الذي يسـتطيع أن يدرك وجه إعجاز القرآن البلاغي ويخلق الكلام الجيد ويفاضل بين كلام وكلام.

ثانيًا : لعلَّ الحرص على معرفة أسباب نزول القرآن الكريم كان وراء تعريف البلاغيين للبلاغة بقولهم : البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

ثالثًا : أصبح البيان بفضل قضية الإعجاز طريقا للإيمان ، ومِن ثمَّ أصبح تعلّمه من أمور الدين" (٢)

****

هذا ، وإذا كان البلاغيون يرون أنَّ النَّظم مناط الإعجاز القرآني ، فلا شكَّ أنْ تكون علوم البلاغة الثلاثة أحد أهمّ الآليات التي تبرز مقصود النَّظم

---

(١) التصوير الفني في القرآن ــ سيد قطب ص ١٠٢ ــ ط : دار الشروق ــ القاهرة .

(٢) قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية د عبد العزيز عبد المعطي عرفة ص ٩ ــ ط : عالم الكتب ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : أولى ــ ١٤٠٥ ه ــ ١٩٨٥ م .

وغايته ، يقول الدكتور عبد العظيم المطعني ــ رحمه الله ــ " إنَّنا ما دُمنا نقول ونرجح أنَّ إعجاز القرآن إنَّما هو بنظمه وروعة تأليفه ، فإنَّ البلاغة والفصاحة تمثِّلان لنا أكبر دعامتين في بيان جودة النَّظم وروعة التأليف ، في حقائقه ومجازاته وبدائعه ، في معانيه وبيانه " [١] فـ " عبد القاهر الجرجاني أقام نظرية كاملة في كتابه (دلائل الإعجاز) ، لم ينحرف وهو يضع أسسها عن توجيهات البلاغة " [٢]

هذا ، ولا أدلّ على بلاغة وإعجاز كتاب الله الكريم ، مِن تلك الفرائد الفذة التي لم تتكرَّر ، فـ " جميع الفرائد قد تلاءمت مع سِياقها ، وتجاوبت مع ما قبلها وبعدها ، ولو حاولت وضع غيرها مكانها لأبى عليك ذاك الكلام ، ورفضه المعنى العام " [٣]

إنَّ عِلم البلاغة العربية يدفع بأصحابه دفعًا صَوب اليقِين ، وصَحيح الاعتقاد الذي لا يخالجهما أدْنى شك ، في معرفة الخالق ، وصِدْق الرِّسالة المُحمَّدية التي كان نَبيّ آخِر هذا الزَّمان قيِّمًا على تبليغها إلى النَّاس كَافّة ، وهل يكون للشكّ مكان بحال مِن الأحوال ، فيمَن اختارته إرادة الله بأن يكون أحد أُولئك الذين طَهَرت قلوبهم ، وتَطَهَّرت مِن كلّ رَفَث وخَبَث لتحمل

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ــ د عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني ١ / ١٨٦ ــ ط : مكتبة وهبة ــ القاهرة ــ ط : أولى ــ ١٤١٣ ه ــ ١٩٩٢ م .

(٢) خصائص التعبير القرآني ١ / ١٨٦ .

(٣) الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية د عبد الله عبد الغني سرحان ص ٣٠٨ ــ ط : مركز التدبر للاستشارات التربوية والتعليمية ــ الرياض ــ السعودية ــ ط : أولى ــ ١٤٣٣ ه ــ ٢٠١٢ م .

ذلك ، مُتيقِّنا أنَّه اختيار ربانيّ ، وكفَى بذلك ؟

وبحَقٍّ يظلّ كلّ مُدارِس لمَسَائل الإعْجاز في طَبقة لا تُدانى ، ومرتبـــة لا تقارن ، وكيف لا يكون له ذلك ؟ وقد جعل كلام ربِّه غايتـــه ومَنشُـــوده .. وفَّق الله أهل البلاغة وجعَل التوفيق لاستخراج أمارات الإعجاز حلـــيفهم ، سُبحانه ولي ذلك ، ومولاه .

المَبحَث الثاني :
تناسُب البيان الفَصيح لمُقْتضاه .

التناسب أحد دلائل الحُسن ، وأمارة مِن أمارات الجَمَال ، فهو رمز الكمال ، وعنوان التمام ، ما اتَّصف به شيء إلا زانَه ، وما خلا مِنه شيء إلا عُدَّ ناقصا ومعيبا ، انظر إلى الألوان مرة وهي متناسقة ، وأخرى وهي متنافرة ، تدرك أنَّ التناسُب أساس كلّ شيء ، ومن ذلك صورة الإنسان ، فإنَّ أبا حيان التوحيدي أجاب عن سرِّ استحسان الصُّورة الحَسَنة ، بقوله : " أمَّا سبب الاستحسان لصورة الإنسان ، فكمال في الأعضاء ، وتناسُب بين الأجزاء ، مقبول عند النَّفس " (١)

وكذلك البيان ، تراه حين يُوسَم بالتلاؤم والتناسُق في أعلى حال ، وعلى أتمّ هيئة وصُورة ، حتَّى إنَّه ليكاد أنْ يكون التناسُب وَجها قويًّا مِن وجوه إعجاز كتاب الله الكريم ، ولا يقلّ عن وجْه الإعجاز بالنَّظم : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (٢)

ثمَّ إنَّه حين يُوصَف بنفي التلاؤم والانسجام يعرى مِن كل وصف حسَن ، وخلَّة محمودة ؛ لأنَّه في ظنِّي لا يوصف بأنَّه بيان أصلا ، وكيف لا وقد وَسَموه حين يعرى مِن وَسْم تآخِي مُفرداته وعدم تلاقيها ، والتآخي بين المفردات المتجاورة وذلك أدنى درجات التناسب ، ببعر الكَبْش في قول

---

(١) الهوامل والشوامل لأبي حيان التوحيدي ومسكويه ــ نشره أحمد أمين و / السيد أحمد صقر ص ١٤٠ ــ ط : شركة الأمل للطباعة والنشر ــ مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة .

(٢) سورة النساء : ٨٢ .

قائلهم[١] :

وَشِعْرٍ كَبَعْرِ الكَبْشِ فَرَّقَ بَينَـــهُ ∴ لِسَانُ دَعِيّ فِي القَــرِيضِ دَخِيــلِ

وقد ذكَر الجاحظ ــ رَحِمه الله ــ أنَّ مُصعب بن حيَّان ، خطب خِطبةَ نكاح ، فحَصِرَ فقال : لقِّنُوا موتاكم قول لا إله إلاّ اللَّه ، فقالت أمُّ الجارية : عجَّل اللَّه موتَك ، ألهذا دعوناك ؟ [٢] فحين تتأمَّل قول أمّ الجارية : (عجَّل اللَّه موتَك ، ألهذا دعوناك ؟) يتبدَّى لك أنَّ قولها على بالغ وجازته ، قد اشتمل على أُسلُوبين مِن أسَاليب الإنكار : (الدُّعاء علَى المُتحدِّث بالهلاك ، والاستفهام الذي يحمل في ثناياه الإنكار والتوبيخ والتعجُّب) وهذا يُترجم بالِغ القُبْح الذي يتَّصف به القول الذي لا يستقيم مع مُقتضاه .

ولهذا يذكر الجاحظ ــ رحمه الله ــ أنَّ " جِمَاع البلاغة التماس حُسن الموقع ، والمعرفةُ بساعات القول ، وقلة الخَرَق بما التبَسَ من المعاني أو غَمُضَ ، وبما شَرَد عليك من اللّفْظُ أو تعذّر " [٣]

---

(١) البيت أنشده أبو البَيداء الرِّياحي . ينظر : البيان والتبيين للجاحظ ١ / ٦٦ .
وأمَّا قوله : كبعْر الكَبش ، فإنَّما ذهب إلى أنَّ بعرَ الكبشِ يقع متفرقاً غيرَ مؤتلفٍ ، ولا متجاور ، وكذلك حروف الكلام ، وأجزاء البيت من الشعر ، تراها متفقة ملسا ، ولينة المعاطف سهلة ، وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة ، تشقُّ على اللسان وتكدُّه ، والأخرى تراها سَهلةً لينةً ورطبة متواتيةً ، سلسة النظام ، خفيفة على اللسان حتَّى كأنَّ البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتَّى كأنَّ الكلمة بأسرها حرف واحد . ينظر : البيان والتبيين للجاحظ ١ / ٦٧ .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ٢ / ٢٥٠ .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ١ / ٨٨ .

فالبيان الفصيح ، شرْطه الذي يؤكِّد حسْنه ، ويدلِّل على صِحته ، وينْفي عنه كلّ معيب : تناسبه لمقتضاه الذي استدعاه ، ولكل بيانٍ فصيحٍ مقتضى ، ولا نكير لأحد في ذلك ، فكلام ربّنا سُبحانه وتعالى كان في تلك المرتبة الأعلى ؛ لأنَّه صادر مِن عليم أحاط سبحانه وتعالى بأحوال المَخاطَبين وما يُناسبهم ، وهذا سرّ الإعجاز كما هو مَعلوم ومشهور .

يقول الجاحِظ ــ رحِمَه الله ــ في إشارة دقيقة مِنه إلى تناسُب البيان القرآنيّ ، ومراعاته لحال مُخاطَبه : ".. ورأينا اللّه ــ تبارك وتعالى ــ إذا خاطب العربَ والأَعْرَابَ ، أخرجَ الكلامَ مُخْرَجَ الإشارة والوحي والحذف ، وإذا خَاطَبَ بني إسرائيل أو حكَى عنهم جعلَه مبسوطا ، وزاد في الكلام "[1]

وأدقّ مِن ذلك أنْ نذكر ــ وهذا ثابت لكتاب الله الخالد ــ إشارة علماء الإعجاز إلى " أنَّ عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصِّفات هو وضع كلّ نوع مِن الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به ، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه : إمَّا تبدُّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإمَّا ذهاب الرونق الذي يكون معه سُقوط البلاغة ... " [2]

---

(1) الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ــ تحقيق : عبد السلام محمد هارون ١ / ٩٤ ــ ط : مصطفى البابي الحلبي ــ مصر ــ ط : ثانية ــ ١٣٨٤ ه ــ ١٩٦٥ م .

نصّ الجاحظ نفيس جدّا ، يحتاج إلى دراسة جادة تميط اللثام عن خَصائص بيان القرآن الكريم ، في خِطابه للعرب واليَهود ، ويقف عِند الفوارق بَين الخِطابين .

(2) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني ــ تح : محمد خلف الله أحمد ، و / محمد زغلول سلام ص ٢٩ ــ ط : دار المعارف ــ مصر ــ ط : ثالثة ــ من دون تاريخ .

بل إنَّ الرازيَّ ــ رحمه الله ــ يقول : " كلّ كلمة وردت في القرآن فهي لمعنى ، وكلّ ترتيب وجد فهو لحكمة ، وما ذكر على خلافه لا يكون في درجة ما ورد به القرآن " [١] أليس هذا يترجم اتصاف البيان القرآني بأنَّه قد بلغ أرقى درجات التناسُب وأتمّها ؟

هذا ، والمُتأمِّل لتعريف البلاغيين لبلاغة الكلام بأنَّها : مُطابقته لمُقتضى الحال مع فصاحته [٢] يتبيَّن له بوضوح فِطْنة البلاغيين قديمًا إلى هذا المقصِد ، حتَّى إنَّهم خَصّوا بلاغة الكلام بهذا المقصد ، وحصَروها فيه ، وهذا إنْ دلَّ فإنَّما يدلّ على جليل هذا المقصِد عندهم ، وأنَّه مِن الأهمِّية بمكان .

لقد جعل الخطيب القزويني المطابقة لمقتضى الحال معيار حُسْن البيان وجودته ، وعدَّ المُخالَفة أمارة القُبح وانحطاط البيان ، فيرتبط عنده " ارتفاع شأن الكلام في الحُسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب ، وانحطاطه بعدم مطابقته له ، فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب ، وهذا أعني تطبيق الكلام على مقتضى الحال " [٣] ولاسيَّما أنَّ " مقامات الكلام مُتفاوتة ، فمقام التنكير يباين مقام التعريف ، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد ، ومقام التقديم يباين مقام التأخير ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف

---

(١) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للرازي ٢٥ / ١٣١ ــ ط : دار الفكر ــ لبنان ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٠١ ه ــ ١٩٨١ م .

(٢) الإيضاح للخطيب القزويني ١ / ١٢٢ ــ ضمن شروح التلخيص .

(٣) الإيضاح للخطيب القزويني ــ وضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين ص ٢٠ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : أولى ــ ١٤٢٤ ه ــ ٢٠٠٣ م .

، ومقام القصر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة ، وكذا خطاب الذكيّ يباين خطاب الغبيّ ، وكذا لكلّ كلمة مع صاحبتها مقام " [1] ، وليس هذا فحَسب ، فإنَّ مقام " التَّشكُّر يباين مقام الشِّكاية ، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ، ومقام المدح يباين مقام الذَّم ، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب ، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل ، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار ، ومقام البناء على السُّؤال يُغاير مقام البناء على الإنكار ، جميع ذلك معلوم لكلّ لَبيب " [2] والمُتتبِّع لهذه المَعانِي : (التشكر ، الشكاية ، التهنئة ، التعزية ، وغيرها) يُدرك أنَّ لكلّ منها أساليب خاصَّة يُوظِّفها صاحِب البيان لتحقيق تلك المَعاني .

إنَّ نقادنا عدّوا مُناسبة البيان الفصيح لمُقتضاه علة مِن العِلل التي يحْسُن بسببها البيان ، يقول صاحب عيار الشِّعر : " ولحُسن الشِّعر وقبول الفهم إياه علَّة أخرى ، وهي موافقته للحال التي يعد معناه لها ؛ كالمدح في حال المُفاخرة ، وحضور من يكبت بإنشاده من الأعداء ، ومن يسر به من الأولياء ، وكالهجاء في حال مُباراة المهاجى ، والحطّ منه حيث ينكى فيه استماعه له ، وكالمراثي في حال جزع المصاب ، وتذكُّر مناقب المفقود عند تأبينه ، والتعزية عنه ، وكالاعتذار والتنصُّل مِن الذَّنب عند سلّ سخيمة المجني عليه المعتذر إليه ، وكالتحريض على القتال عند التقاء

---

(1) السابق ص ٢٠ .

(2) مِفتاح العلوم للسكاكي ــ تحقيق : د / عبد الحميد هنداوي ص ٢٥٦ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٢٠ ه ــ ٢٠٠٠ م .

الأقران وطلب المغالبة ، وكالغزل والنسيب عند شكوى العاشق واهتياج شوقه وحنينه إلى مَن يهواه " [1]

هذا ، وقد جَانَب كَمَال الصَّواب مَنْ تَوَهَّم أنّ البَلاغَة العَربيَّة " ترجع في أُصولها العامَّة إلى تَحَقُّق العناصر السّتَّةِ التالية :

العنصر الأول : الالتزام بما ثبت في متن اللّغة وقواعد النحو والصرف ، واختيار الفصيح من المفردات والْجُمَل والقواعدِ .

العنصر الثاني : الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد .

العنصر الثالث : الاحتراز عن التعقيد في أداء المعاني المرادة ، سواء من جهة اللّفظ أو من جهة المعنى .

العنصر الرابع : انتقاء الكلمات والعبارات الجميلة ، الّتي يُدْرِكُ جمالَها الحسُّ المرهف ، والذّوْقُ الرفيع لدى البلغاء .

العنصر الخامس : تصيُّد المعاني الجميلة ، وتقديمها في قوالب لفظيّةٍ ذاتِ جمالٍ.

العنصر السَّادس : تزيين الكلام بالمحسِّنَات التي تَسْتَثِيرُ إعجاب المخاطَبِين، والمحسّنَاتُ التي تُزَيّنُ الكلامَ وتَزِيدُه جمالاً لا تُحْصَرُ ، وباستطاعة الموهوبين أن يبتكروا فيها دواما أشياء جديدةً لم يتوصَّلْ إليها البلغاء

---

(1) عيار الشعر لابن طبَاطبَا العلوي ــ شرح وتحقيق : عباس عبد الساتر ومراجعة نعيم زرزور ص ٢٢ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : ثانية ــ ١٤٢٦ ه ــ ٢٠٠٥ م .

السّابقون مِن النَّاس " [1]

؛ لأنَّ هذه مقاصد فرعية غير رئيسة ، ولا تطلب لذاتها مِن البليغ ، ولا مِن مُدَارسة ذاك العِلم الشَّريف أيضًا ، وهي فِي مُجْملها تندرج تحت مَقصد المُطابَقة لمُقتضى الحال ، ووجوب تأثير البيان في حِسّ المُتلقِّي ووجدانه ، كَمَا أنَّ هذه العناصِر السِّت في مُجْملها مِن قبيل الصِّناعة اللفظية .

ومَنْ " يَحسب أنَّ البلاغة صِناعة لفظيَّة مَحْضَة ، قوامها انتقاء الألفاظ الرقيقة ، أو الكلمات الضَّخمة الغريبة ، فمثل هذا يُعالج بهذا الكتاب ــ والإشارة هنا لكتاب دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ــ فإنْ اهتدى به إلى كون البلاغة مَلَكة رُوحية ، وأريحية نفسية ، رجى أنْ يَبْرأ مِن علَّته ، ويقف على مكانة الكتاب ورُتبته ، وإنْ بقى على ضلاله القديم وجهله المُقيم ، فاحكم بإعضال دائه ، وتعذُّر شفائه " [2]

وفوق ذلك ، ففي كلّ بيان بليغ أسرار وأسرار تنتقل إليه مِن نَفْس صاحبه وروحه دُون أنْ يَشعر ، هذه الأسرار قد يقِف عليها المُتدبِّر الواعي الذي يَصل نفْسه بنفس صاحب البيان ذاته ، ويحاول أنَّ يعيش معه في نفس تجربته ، وقد تكون هذه الأسرار ــ رغم استحالة الوقوف عليها ــ

---

(1) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها لعبد الرحمن حسن حبنَّكة الميداني ١ / ١٣٢ ــ ط : دار القلم ــ دمشق والدار الشامية ببيروت ــ ط : أولى ــ ١٤١٦ ه ــ ١٩٩٦ م .

(2) يُنظَر ما كتبه : السيد محمد رشيد رضا في فاتحة كتاب : دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ص ٧ ــ ط : المكتبة التوفيقية ــ الحسين ــ مصر ــ من دون تاريخ .

وراء جمال البيان وحُسْنه مِن وجه ، وتفرُّده وتميُّزه مِن وجه آخر ، ولهذا قد تتحقَّق هذه العناصر السِّتّ ، ولا يلقى البيان ما يلقاه غيره ــ ممَّا كان أثر نفس صاحبه البليغ الفصيح ورُوحه عليه ــ في نُفُوس المُتلقِّين .

والنَّاظِر لفروع عِلم البلاغة الثلاثة : (المعاني والبيان والبديع) يجد أنَّ حُدُودها ارتبطت بالمطابقة لمُقتضى الحال ارتباطًا وثيقا ، وكانت مطابقة مقتضى الحال أحد عناصر تلك الحدود ، فحَدّ عِلم المعاني عند السَّكاكي : " تتبُّع خواصّ تراكيب الكلام ، في الإفادة وما يتَّصل بها ، مِن الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام ، على ما تقتضي الحال ذكره " [١] وهو عند الخطيب " علم يُعرف به أحوال اللفظ العربيّ التي بها يُطابق مُقتضى الحال " [٢]

وأمَّا عِلم البيان فهو : " معرفة إيراد المعنى الواحد في طُرُق مُختلفة ، بالزيادة في وضوح الدَّلالة عليه ، وبالنُّقصان ، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مُطابقة الكلام لتمام المُراد منه " [٣]

وأمَّا عِلم البديع فهو : " علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام ، بعد رعاية تطبيقه على مُقتضى الحال ، ووضوح الدَّلالة " [٤]

هذا ، وقبل مُلاحَظة ما في البيان مِن تناسُب واتِّساق ينْبغي أنْ يكون ذلك البيان مُتَّسما بصِفة الوُضوح وحُسْن الصُّورة ، فقد قِيل عن البلاغة :

---

(١) مفتاح العلوم ص ٢٤٧ .
(٢) الإيضاح ص ٢٣ .
(٣) مفتاح العلوم ص ٢٤٩ .
(٤) الإيضاح ص ٢٥٥ .

إنَّها إهْداء المعْنى إلى القلب ، في أحْسَن صُورة مِن اللفظ [1] .

فوَصْف البَلاغَة ، بـــ (أنَّها إهْداء المَعْنى إلى القَلْب) يُوحِي بأنَّ البَيان الجيِّد يَجِب أن يَنشرح صَدْر المُتلقِّي إليه ، كَما ينْشرح صَدْر المُهدَى إليه شيئًا يرغبه ، ويجب أيضًا أنَّ يَنْسَاب إلى قلْب المُتلَقِّي ورُوحه ، ولا يَنْسَاب البيان إلى النَّفْس ، إلا إذا لامَسَ نفْس المتلقِّى ، وانشرحت له رُوحه ، ووافقَ ذلك البيان حَاله ؛ لأنَّ البيان لو لَم يُطابق حَال المُتلقِّي ما بلَغ مِنْه شيئا ، مَهْما كان علي ذلك البيان مِن سِمَات الكلام الفصِيح ، وأوصافه .

لكنَّ مَنْ يتأمَّل يدرك أنَّ وُضوح البيان مقصد فرعيّ عن المُطابَقة لمُقتضى الحال ، وحضوره يتوجَّب ابتداءً ، لكنَّه ليس مطلوبا أبدا لذاته ، فلا معنى لوضوح البيان مع غياب المطابقة بحال مِن الأحوال .

فالغموض ، أو التعقيد ، أو التعمية ، ينفي عن البيان القبول والصِّحة ، ومِن ثَمَّ رأينا البلاغيين يعيبون كلَّ بيان اتَّصف بالغُمُوض أو قارب ، فقد ذُكِر أنَّ المُتنبيّ ــ وهو ممَّا يعاب شعره به ــ كان " يصوغ أفخر حلي ، وينظم أحسن عقد ، وينسج أنفس وشي ، ويختال في حديقة ورد ، إذا به وقد رمى بالبيت والبيتين في إبعاد الاستعارة أو تعويص اللفظ أو تعقيد المعنى إلى المبالغة في التكلف ، والزيادة في التعمق ، والخروج إلى الإفراط والإحالة والسفسفة والركاكة والتبرد ، والتوحش باستعمال الكلمات الشاذة ، فمحا تلك المحاسن ، وكدر صفاءها ، وأعقب حلاوتها مرارة لا

([1]) ينظر : عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي ١ / ١٢٩ ــ ضمن كتاب شروح التلخيص ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ من دون تاريخ .

مساغ لها ، واستهدف لسهام العائبين ، وتحكك بألسنة الطاعنين " [1]

تأمَّل كذلك معايير فصاحة الكلام تجد أنَّ البلاغيين عدُّوا تعقيد الكلام أحد معايير قُبْح البيان وانحطاطه ، فتراهم يشترطون لفصاحة الكلام سلامته مِن سوء النَّظم بالتعقيد في لفظ الكلام أو معناه ، ومِن ذلك فساد النَّظْم بتعقيد ألفاظه ، في قول الفرزدق المَشهور في هذا الباب :

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إلا مُمَلَّكَــا ∴ أبُو أمِّــهِ حَــيٌّ أبُــوهُ يُقَارِبُــه

يقول الإمام عبد القاهر : " فانظر أتتَصَوَّر أن يكون ذلك للفظهِ من حيث إنّك أنكرتَ شيئا ، من حروفه ، أو صادفتَ وحشيّاً غريبا ، أو سُوقيّاً ضعيفا ؟ أم ليس إلاّ لأنه لم يُرَتَّب الألفاظ في الذكر، على مُوجب ترتيب المعاني في الفكر ، فكدَّ وكَدَّر ، ومنع السَّامع أن يفهم الغرضَ إلاّ بأنْ يُقدِّم ويؤخّر ، ثمَّ أسرفَ في إبطال النِّظام، وإبعاد المرَام ، وصار كمن رَمَى بأجزاء تتألّف منها صورةٌ ، ولكن بعد أن يُراجَعَ فيها بابا من الهندسة، لفرط ما عادَى بين أشكالها ، وشدّةِ ما خَالف بين أوضاعها " [2]

وعنه أيضًا يقول : " والواضعُ كلامه علَى المجازفة في التقديم والتأخير زائلٌ عن الإعراب ، زائغٌ عن الصَّواب ، متعرّض للتلبيس والتعمية " [3]

---

(1) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور الثعالبي ــ شرح وتحقيق : د مفيد محمد قميحة ١ / ١٨٤ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : أولى ــ ١٤٠٣ ه ــ ١٩٨٣ م .

(2) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ــ شرح وتعليق : د محمد عبد المنعم خفاجي ص ٨٦ ــ ط : مكتبة الإيمان ــ المنصورة ــ القاهرة .

(3) أسرار البلاغة ص ١٢٥ .

وَمِمَّا عابوه لتعقُّد معناه قول العباس بن الأحنف :

سَأطلُبُ بُعدَ الدَّارِ عَنْكم لِتقْرُبوا ∴ وَتَسْكُبُ عَيْنايَ الدُّموعَ لِتَجْمُدَا [1]

وعنده يقول الإمام عبد القاهر بعد أن وقف على طائفة مِن فصيح شواهد الكناية والاستعارة والتمثيل التي كان الانتقال فيها إلى المعنى المراد واضحا : " وإنْ أردتَ أنْ تعرف ما حاله بالضد مِن هذا ، فكان منقوص القوة في تأدية ما أريد منه ؛ لأنَّه يعترضه ما يمنعه أن يقضي حق السِّفارة فيما بينك وبين معناك ، ويوضِّح تمام الإيضاح عن مغزاك ، فانظر إلى قول العباس بن الأحنف :

سَأطلُبُ بُعدَ الدَّارِ عَنْكم لِتقْرُبــوا ∴ وَتَسْكُبُ عَيْنايَ الدُّموعَ لِتَجْمُــدَا

بدأ فدلَّ بسكب الدُّموع على ما يوجبه الفراق مِن الحزن والكمد ، فأحسن وأصاب ؛ لأنَّ مِن شأن البكاء أبدا أنْ يكون أمارة للحزن ، وأنْ يجعل دلالة عليه .. ثمَّ ساق هذا القياس إلى نقيضه ، فالتمس أن يدلّ على ما يوجبه دوام التلاقي مِن السُّرور بقوله لتجمدا ، وظنَّ أنَّ الجمود يبلغ له في إفادة المسرة والسلامة مِن الحزن ، ما بلغ سكب الدَّمع في الدَّلالة على الكآبة والوقوع في الحزن ، ونظر إلى أنَّ الجمود خلو العين مِن البكاء وانتفاء الدُّموع عنها ، وأنَّه إذا قال : (لتجمدا) فكأنَّه قال : أحزن اليوم لئلا أحزن غدا ، وتبكي عيناي جهدهما لئلا تبكيا أبدا ، وغلط فيما ظنّ ، وذاك

---

(1) البيت من بحر الطويل . ينظر : ديوان العباس بن الأحنف ــ شرح وتحقيق : عاتكة الخزرجي ص ١٠٦ ــ ط : دار الكتب المصرية ــ القاهرة ــ ١٣٧٣ ه ــ ١٩٥٤ م .

أنَّ الجمود هو أنْ لا تبكي العين مع أنَّ الحال حال بكاء ، ومع أنَّ العين يراد منها أنْ تبكي ، ويشتكى مِن أنْ لا تبكي ، ولذلك لا ترى أحدا يذكر عينه بالجمود إلا وهو يشكوها ويذمّها وينسُبها إلى البُخل ، ويعدّ امتناعها مِن البكاء تركا لمعونة صاحِبِها على ما به مِن الهمّ " (١)

فالبيان الفصيح الخالي عن التعقيد المعنوي يجب فيه " أنْ يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلا على المعنى الثاني ، ووسيطا بينك وبينه ، مُتمكِّنا في دلالته ، مُستقلا بوساطته ، يسفر بينك وبينه أحسن سفارة ، ويشير لك إليه أبين إشارة ، حتَّى يُخيَّل إليك أنَّك فهمته مِن حاقّ اللفظ ، وذلك لقلّة الكلفة فيه عليك ، وسُرعة وصوله إليك " (٢)

لكنَّ وضوح البيان ليس شرطًا لازمًا في كلّ بيان ؛ إذ قد يكون الإيهام والتعمية المراد منها دفع المحذور مع الصِّدق الأنسب للحال والأوفق ، ومن هنا لم نعدّ وضوح البيان مَقصِدا رئيسا مِن مقاصِدِ البلاغة العربية ، بل عددْناه مِن فرُوع المقاصِدِ ، مع ما له من أهميَّة .

فمَن يتلمَّس ألوان البيان يجد أنَّ بعضها قد خلص للإيهام والتعمية فحَسب ، وكان مِن البلاغة بمَكان بعيد ، ومِن ذلك التوجيه مثلا ، حِينَ تَتأمَّل شواهده في الفصيح عموما تدرك ذلك ، تأمَّلْه في قوله تعالى وهو يحكي عن حال اليهود ــ قاتلهم الله ــ مع النبي ــ صلَّى الله عليه وسلَّم ــ : ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٦٩ .

(٢) السابق ص ٢٦٨ .

﴿ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [1] تجد أنَّ قوله : (واسمع غير مسمع) من هذا الباب ؛ لأنَّه يحتمل المدح ، ويحتمل الذم أيضا ، فإنْ كان مقصود كلامهم الذمّ ، كان المعنى : " اسمع منا مدعوا عليك بلا سمعت ؛ لأنَّه لو أجيبت دعوتهم عليه لم يسمع ، فكان أصمّ غير مسمع ، قالوا ذلك اتكالا على أنّ قولهم : لا سمعت دعوة مستجابة ، أو اسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه . ومعناه غير مسمع جوابا يوافقك ، فكأنَّك لم تسمع شيئا ، أو اسمع غير مسمع كلاماً ترضاه ، فسمعك عنه ناب " [2]

وإنْ أوَّلته على إرادة المدح ، كان المعنى " اسمع غير مسمع مكروها ، مِن قولك : أسمع فلان فلانا إذا سبَّه ، وكذلك قولهم : (راعنا) يحتمل راعنا نكلمك ، أي : ارقبنا وانتظرنا ، ويحتمل شبه كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابّون بها ، وهي : راعينا ، فكانوا سخرية بالدين وهزؤا برسول الله ــ صلَّى الله عليه وسلَّم ــ يكلِّمونه بكلام محتمل ، ينوون به الشَّتيمة والإهانة ، ويُظهرون به التوقير والإكرام " [3]

فالإيهام هنا من البلاغة بمكان ، وهو ــ كما ترى ــ مقصود لذاته ، مع أنَّه لا يمكنك بحال ــ وإنْ وصلتَ الليل بالنَّهار في تدبّر الآية موضع التوجيه ــ أن تعرف هل هي خالصة للمدح أم للذم ، وكيف لا يكون لهذا الضرب مِن البيان هذا الموقع مِن الحُسْن والجمَال والطَّرافة ، وقد وفَّى

---

(1) سورة النساء : ٤٦ .

(2) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ١ / ٥١٧ ــ ط : دار الكتاب العربي ــ ١٤٠٧ ه .

(3) الكشاف للزمخشري ١ / ٥١٧ .

غرَض صاحبه ، وتلك هي البلاغة .

فلا شك أنَّ بيانا يَحفظ صاحبه مِن العتْب والمُؤاخذة جدير بـــأنْ يُوسَـــم بالفصاحة والبلاغة ، وكيف لا وقد كان الإيهام وحده مطيَّة صـــاحبه التـــي حملتْه على إبلاغ كل ما يُريده مِن المُخاطَب ؟ في حِين أنَّ الوضـــوح يكـــلَّ كاهله عن القيام بمثل ذلك .

ثمَّ أليست البلاغة كما يقول الخليل : ــ رحمهُ الله ــ " كلمة تكشف عن البغية " ؟ [1] وأليست هي ما رواه الجاحظ عن العتَّـــابي : إذ قـــال : قلـــتُ للعَتَّابيّ : ما البلاغة ؟ قال : كلُّ مَنْ أفهمك حاجته ، من غيـــر إعـــادةٍ ولا حُبْسَة ولا استعانةٍ ، فهو بليغ [2]

هذا ، ومِن بديع الإيهام الذي ناسَب مُقتضاه ووفى بغرض صاحبه : ما حُكِي " عن ابن الجوزي ــ رحمه الله تعالى ــ أنَّه سئل وهو على المنبـــر وتحته جماعة من مماليك الخليفة وخاصته ، وهم فريقان : قـــوم ســـنية ، وقوم شيعة ، فقيل له : مَنْ أفضل الخلق بعد رسول الله صـــلى الله عليـــه وسلم أبو بكر أم علي ــ رضي الله عنهما ــ ؟ فقال : أفضلها بعـــده مَـــن كانت ابنته تحته ، فأرضى الفريقين ، ولم يرد إلا أبا بكر رضي الله عنـــه ؛ لأنَّ الضمير في ابنته يعود إلى أبي بكر ــ رضي الله عنه ــ وهي عائشـــة ــ رضي الله عنها ــ وكانت تحت رسول الله ــ صلى الله عليـــه وســـلم ــ والشيعة ظنّوا أنَّ الضمير في ابنته يعود إلى رسول الله ــ صلَّى الله عليـــه وسلَّم ــ وهي فاطمة ــ رضي الله عنها ــ وكانت تحت علي ــ رضـــي الله

---

(1) عروس الأفراح ١ / ١٢٦ .

(2) البيان والتبيين للجاحظ ١ / ١١٣ .

عنه ــ فهذه منه جيدة حسنة ، وكلمة باتت جُفون الفريقين منها وَسِــنَة " [1]

ثمَّ كيف لا يكون التوجيه أو الإبهام في نهاية البلاغة " ومنه مُتشابهات القرآن باعتبار " [2] ؟ ومِن ثمَّ يقرّ في العقل والفؤاد معا أنَّ مُطابقة البَيان لمُقتضاه ، سَواء اتَّسم بالوضوح أم بالإيهام مِن أهمّ ما تقصده البلاغة العربية ؛ لأنَّ تخلُّف البَيان عن وَسْم مُطابقة المُقتضى يجعله في الدَّرك الأسفل ، والمقام الأحطّ ، وإنْ كَسَاه صاحبه ، أو طرَّزه بكلّ عُنصر مِن عناصر صِناعة اللفظ .

هذا ، وليس التوجيه فحَسْب الذي يُحقِّق مَقْصود المُتكلِّم ، ويكون الأنسب لمُقتضَى الحال ، مع ما يشتمل عليه مِن الإبهام أو الإيهام ، فهُناك أيضًا التورية ، والتي مِن أسمائها الإيهام [3] تُوَظَّف لذلك ، فــ "مِن جيِّد التورية وغريبها ، مع توخّي الصِّدق في موطن الخَوف ، قول أبي بكر الصِّديق ــ رضي الله عنه ــ وقد أقبل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو رديفه عام الهجرة ، فقيل له : من هذا يا أبا بكر ؟ فقال : رجل

---

(1) المُستطرَف من كلّ فن مُستظرف لشهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي ــ تح : د / مُفيد محمد قميحة ١ / ١٠٧ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : ثانية ــ ١٩٨٦ م .

(2) الإيضاح للخطيب ص ٢٨٥ .

(3) السابق ص ٢٦٦ .

يهديني السبيل " [1]

وتأمَّل جَمَال الإيهام :(التورية) في القرآن الكريم حِكاية عن إخوة سيِّدنا يوسُف عليهم السَّلام ، مُخاطِبينَ أباهم عليه مِن الله السَّلام ، عند قوله ــ عزَّ شأنه ــ : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾ [2] تجد أنَّه وُظِّف أتمّ توظيف في بيان ما انطوت عليه ضَمَائرهم ، فلا يزال اعتقاد الإخوة بأنَّ أباهم يُؤثر يوسف قابعا في نفوسهم ، وقد كانت التورية دون غيرها الأوفق والأليق ؛ لأنَّ الأبناء يشفقون بالأب ،وقد أصابه ما أصابه مِن ألَم الفقد ، ومرارة الغياب ، فهم لا يستطيعون مواجهته بما كانوا يواجهونه به في الماضي ، والذي حكاه القرآن عنهم عند قوله : ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [3] فكلمة الضَّلال سائغة في أفواههم ؛ إذ حكاها القرآن عنهم قبلا في صدر السُّورة عند قوله : ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾.

قال ابن أبي الإصبع : ومنها ــ أي التورية ــ : ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ فالضلال يحتمل الحب

---

(1) نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ــ تحقيق : مفيد قمحية وجماعة ٣ / ١٥١ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : أولى ــ ١٤٢٤ هـ ــ ٢٠٠٤ م .

(2) سورة يوسف : الآيتان ٩٤ ، ٩٥ .

(3) سورة يوسف : ٨

وضد الهدى ، فاستعمل أولاد يعقوب ضد الهدى تورية عن الحب [١]

بل إنَّ البلاغيين جَعلوا مرتبة التورية مِن البلاغة مَرْهونة بقدر ما تُبْعد ظنَّ المتلقِّي عن مُرَاد صَاحِبها ، وأنَّ التورية كُلَّما اشتملت على لَوَازم المعنى القريب غير المُرام ، الموغلة بها نحو الإبهام والخفاء درجة ، كانت أبلغ وأجود .

وكيف لا يكون الإيهام في موطنه رأس البلاغة ؟ والتورية "مِن أغلى فُنون الأدب ، وأعلاها رُتبة ، وسحرها ينفث في القلوب ، ويفتح بها أبواب عطف ومحبة ، وما أبرز شمسها مِن غيوم النَّقد إلا كلّ ضامر مهزول ، ولا أحرز قصَبات سَبقها مِن المتأخِّرين غير الفُحُول " [٢] وقال الزمخشري ــ رحمه الله ــ : " ولا ترى بابا في علم البيان أدقّ ولا أرقّ ولا ألطف من هذا الباب ، ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات مِن كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء ، فإنّ أكثره وعليته تخييلات ، قد زلَّت فيها الأقدام قديما ، وما أوتي الزالون إلاّ من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير ، حتَّى يعلموا أنَّ في عداد العلوم الدقيقة علمًا لو قدّره حقّ قدره ، لمَّا خفي عليهم أنّ العلوم كلّها مفتقرة إليه وعيال عليه ، إذ لا يحلّ عقدها الموربة ، ولا يفك قيودها المكربة إلا هو ، وكم آية مِن آيات التنزيل

---

(١) ينظر : الإتقان للسيوطي ــ تحقيق مركز الدراسات القرآنية ٥ / ١٧٢٧ ط : وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ــ السعودية .

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب لتقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي ــ تحقيق : عصام شعيتو ٢ / ٤٠ ــ ط : دار ومكتبة الهلال ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٩٨٧ م .

، وحديث مِن أحاديث الرسول ، وقد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة ، والوجوه الرَّثة ، لأنّ مَن تأوَّل ليس مِن هذا العلم في عير ولا نفير ، ولا يُعرف قبيلا منه مِن دبير " (١)

هذا ، والمُتأمِّل يجد أيضًا أنَّ الحذف باب واسع مِن أبواب الإيهام والتخييل ، لكن حين تتأمَّل قالة البلاغيين فيه ، وكذلك مواقعه في فصيح الكلام تدرك أنَّه مسلك بعيد جدا في البلاغة ، ولا يُحْسن توظيفه كلّ مُبِين ، وكفَى به في القرآن الكريم وفصيح البيان ورودا وتمكُّنا ، فـ " هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة ، أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن " (٢)

ثمَّ تجد الإمام عبد القاهر ــ رحمه الله ــ يقول بعد أنْ عرَض لطائفة مِن شواهده في فصيح البيان : " انظر إلى موقعها في نفسك وإلى ما تجده من اللطف والظرف إذا أنت مررت بموضع الحذف منها ، ثم قلبت النفس تجد ، وألطفت النظر فيما تحس به ، ثم تكلف أن ترد ما حذف الشاعر ، وأن تخرجه لفظك ، وتوقعه في سمعك فإنَّك تعلم أن الذي قلت كما قلت ، وأن رُبَّ حذف هو قلادة الجيد ، وقاعدة التجويد " (٣)

فمن توظيف الحذف لإفادة الإيهام : حذف المسند إليه ، كما في قولك في حضرة مخاطب تعنيه بالخطاب : (سارق أو غادر أو ظالم) بحذف

---

(١) الكشاف ٤ / ١٤٣ .
(٢) دلائل الإعجاز ص ١٤٦ .
(٣) السابق ص ١٥١ .

المسند إليه ، وفي الحذف هنا إيهام لا يخفى ؛ لأنَّ المُسند إليه الكلام غير متعيِّن بسبب الحذف ، فيتأتَّى الإنكار لقائله عند الحاجة ، ومن ثم يسلم ويأمن مِن العتب والمؤاخذة .

فهل يشكّ في هذه الصورة وأمثالها أنَّ الإيهام هو الأبلغ ، وكيف لا وهو الأوفى بالغرض وحاجة صاحب البيان إليه ماسة ؟ بل إنَّ الوضوح عن طريق إظهار المسند إليه يفوِّت على صاحب البيان غرضه ومؤدَّاه ، فلا يتمكَّن أبدا مِن إفراغ ما في نفسه تجاه المَعنيّ بالخطاب ، فالملكوم قد يجد راحة ، وقد يشعر بأريحية ، حين توجَّه كلماته إلى بغيض من نفسه ، تصعب عليه أو تستحيل مواجهته .

ومن بديع الحذف لإفادة الإيهام أيضًا : حذف المفعول ، في قول يحيى بن زياد الحارثي :

نَعَى نَاعِيَا عَمْرٍو بِلَيْلٍ فأسْمَعَا ∴ فَرَاعَا فُـؤَادا لاَ يَـزَالُ مُرَوَّعـا

وقوله : (أسمعا) حَذَف مفعوليه ؛ لأنَّ المراد أسمعا الناس نعيه ، وهـو بتجرّد من المفعول ، يستعمل في المكروه كثيرا ، ولأنَّه إذا أطلق مُبهَمـا ، فالإطلاق في مثل هذا المكان أبلغ ، وإنَّما قال : (مروعا) إيذانا بأنَّ ذلـك الروع ثبت في القلب ، حتَّى لا إفاقة منه [1]

هذا ، وتعجب أيُّها القارئ حين تعرف أنَّ علماءنا أشاروا إلى أنَّ الحذف مع ما فيه من الإيهام له دور كبير في تماسُك النّصوص ، فالسُّيوطي ـ

---

(1) ينظر : شَرْح ديوان الحَمَاسة للمرزوقي ـ نشره : أحمد أمين ، وعبد السلام هارون ١ / ٨٦١ ـ ط : دار الجيل ـ بيروت ـ ط : أولى ـ ١٤١١ ه ـ ١٩٩١ م .

رحمه الله ــ يقول في مَعرِض حديثه عن الاحتباك [١] : " مأخَذ هذه التسمية مِن الحبك الذي معناه الشدّ والإحكام وتحسين أثر الصَّنعة في الثوب ، فحبك الثوب : سدّ ما بين خيوطه من الفرج ، وشدِّه وإحكامه ، بحيث يمنع عنه الخلل مع الحُسن والرَّونق ، وبيان أخذه منه أنَّ مواضع الحذف مِن الكلام شبهت بالفرج بين الخيوط ، فلمَّا أدركها الناقد البصير بصوغه الماهر في نظمه وحوكه ، فوضع المحذوف مواضعه ، كان حائكا له مانعاً مِن خلل يطرقه ، فسدَّ بتقديره ما يحصل به الخلل مع ما أكسبه مِن الحُسْن والرَّونق"[٢]

هذا ، والحديث عنِ الألوان والأساليب والصُّور التي توظَّف للإيهام والإبهام ، الذي يكون موافقا لمقتضَيات النَّظم البليغ ، في البلاغة العربية كثيرة ، ومَجال البَحث يَضِيق بعدِّها ، فحَسْبنا ما ذكرنا ، والله تعالى أعلم .

هذا ، ومِن أبْلغ ما يُدلِّل علَى صِدْق القول بأنَّ تناسُب البيان لمُقتضاه مِن أجلّ المقاصد وأعلاها ، ما وقَع في القرآن الكريم مِن فَرَائد خالَفَت في الظَّاهر مَقاييس العربية ، وناقضت الأحكام التي وضَعها علماؤها ، فلا شكَّ أنَّك حِين تتأمَّلها في الكتاب الكريم لا تجد أنسب مِنها ولا أوقع ،

وهذا أمر يحتاج إلى دراسة مستفيضة تبرز الأسرار البلاغية للعدول عن القياس في بعض التراكيب العربية في القرآن الكريم ، ولاسيَّما وقد تناول هذا الجانب بعض ممَّن يشتغلون بالنحو في عصرنا .

---

(١) الاحتباك : هو أنْ يجتمع في الكلام مُتقابلان ، ويحذف مِن كلّ واحد منهما مقابله ، لدلالة الآخر عليه . ينظر : معجم التعريفات ص ١٣ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٥ / ١٦٢٤ .

والحاصل : أنَّ تناسُب البيان بشكل عام [1] ، وتناسبه لمُقتضيات أحْواله بشكل خاص ، مِن أجَلّ مقاصِد البلاغة العربية ، وأعلاها ، وتحقُّقه وحده دون غيره مِن مقاصِد ، يرشد إلى حسن البيان من وجه ، ويُومِئ إلى فِطنة المُتكلِّم ورُشده من وجه آخر .

هذا ، ويُمكِن القول : إنَّ سرَّ بلوغ القرآن الكريم : (حروفا وألفاظا وأساليب) هذه المرتبة الأعلى مِن الفصاحة والبلاغة ، يكمُن في تناسُبه لمقتضيات أحواله ، فإذا كان القرآن الكريم صِفة ربِّنا ــ عزَّ وجلَّ ، فإنَّ القرآن الكريم يعكس ــ في أكشف صُورة ــ علم الله الذي أحاط بكلّ شيء ، ومِن ذلك أحوال النَّفس البشريَّة التي وجَّه ربنا ــ سُبحانه وتعالى ــ هذا البيان المُعجِز لهدايتها ، وإخراجها مِن الظُّلمات إلى النُّور ، فما تأمَّل مُتأمِّل صادق هذا التناسُب على تنوُّع طرقه وأشكاله إلا رآه رأي العين وحصل عنده البقين بأن هذا الكتاب هو تنزيل رب العالمين سبحانه . والله تعالى أعلم .

---

(1) فلا يخْفى علَى مُتأمِّل " بناء النظم القرآني بشقَّيه : المَعاني والأساليب على الاتِّصال الدَّائريّ ، وهذا لا تجده في كلام البشر أبدًا ، فما مِن دِيوان شعر ولا خُطَب أو رسائل إلا وتجدها منفصلة بعضها عن بعض معنى وأُسلوبا ، أو أحدهما ، على وجْه الانقطاع ، إمَّا بين القصائد أو الرَّسائل ، وإمَّا بين أجزاء العمل الواحد .
فإذا تدبَّرت القرآن الكريم وجدْته وحده مَبنيا على الاتِّصال الكامل بين أجزائه وسُوره ومَجموعاته ، حتَّى إذا انتهيت إلى سُورة (النَّاس) وجدتها مُتعلّقة بأوَّل الفاتحة ومُتَّصلة بها ومُتناسبة معها على وجه بديع ، فتعيده حالا مرتحلا كأنَّه حلقة مفرغة لا يدرى أين طرفاها ، ووجْه ذلك أنَّ القرآن كلّه يجمعه معنى هو له أمّ ، وأسلوب له أصْل ، فيتفرَّع عنهما كلّ ما هو بين دفتيّ المصحف " . ينظر : أصول البحث في خصوصية بلاغة النَّظم الكريم ــ أ د / علي عبد الحميد أحمد عيسى ص ٦ .

المبحث الثالث :
تَربِيَة الذَّوق وتنْمِية المَلَكَات [1]

للبلاغة العربيَّة أثر كَبير في تربية الذَّوق ، وتنمية المَلَكات ، فالمُدارِس لفُنُون ذلك العِلم شرِيف القدْر لن يعدَم مِن ذلك عاجِلا أم آجِلا .

فتربية الذَّوق وتنمية المَلَكات مِن أجَلّ مَقاصِد البلاغة العربيَّة الرَّئيسة ؛ لأنَّ فنُون البلاغة إحدى الآليات التي تُعين صاحب البيان التعبير الأنسب عمَّا يختلج النَّفس والفؤاد سَواء أكان المُعبَّر عنه مسْموعًا أم مقْروءًا .

والبلاغة كذلك تُعين المُتورِّك بصدق على دراسة فُنونها مع الاطِّلاع

---

(1) الذَّوق : قوة إدراكية لها اختصاص بإدراك لطائف الكلام ووجوه مَحاسنه الخفية . ينظر : التحرير والتنوير ١ / ١٠٧ .

وأهل الذوق من يكون حكم تجلياته نازلا من مقام روحه وقلبه إلى مقام نفسه وقواه ، كأنه يجد ذلك حسا ويدركه ذوقا ، بل يلوح ذلك من وجوههم . ينظر: معجم التعريفات للجرجاني ص ٣٦ (باب الألف مع الهاء) .

أمَّا المَلَكة : فهي صفة راسخة في النفس أو استعداد عقلي خاص لتناول أعمال معينة بحذق ومهارة ، مثل الملكة العددية والملكة اللغوية . ينظر : المعجم الوسيط ص ٨٨٦ ــ مادة (باب الميم مع اللام) ــ ط : مكتبة الشروق الدولية ــ ط : الرابعة ــ ١٤٢٥ه ــ ٢٠٠٤ م .

فالملكة صفة راسخة في النفس ، وتحقيقه أنَّه تحصل للنفس هيئة بسبب فعل من الأفعال ، ويقال لتلك الهيئة : كيفية نفسانية ، وتسمَّى حالة ما دامت سريعة الزوال ، فإذا تكرَّرت ومارستها النفس حتَّى رسخت تلك الكيفية فيها ، وصارت بطيئة الزوال فتصير ملكة ، وبالقياس إلى ذلك الفعل : عادةً وخلقا . ينظر : معجم التعريفات للجرجاني ص ١٩٣ ــ مادة ملك .

على سنن العرب في كلامهم علَى تذوُّق البيان ، وتبيان أوجه الحُسْن فيه ، وتمييز الحَسن مِن القبيح ، والحسَن كذلك مِن الأحسن ، وبيان مَرتبة كلّ حَسَن ، ووجه حُسنه ، وهذه غاية ليست يسيرة ، ولا تحصل إلا لمريد صَدَق في الطَّلب ، ووُهب مَعُونة .

لقد جعل علماؤنا تربية الذوق وتنمية الملكة التي تشعر بأسباب الجمال وألوانه في النَّص أهمّ ما يتوجَّب على البلاغة قصده ، فتراهم ينفون أن يكون " الغرض من دراسة هذه الفنون والعلوم والمذاهب والنصوص الجمود في قوالب ما استخرج من العناصر الجمالية وما وضع مِن قواعد دون اكتساب الإحساس المرهف بمواطن الجمال " (١) وعلَّتهم في ذلك أنَّ " الجَمال كثيرًا ما يتذوَّقه الحسّ الظاهر والشّعور الباطن دون أن يستطيع الفكر تحديد كلّ العناصر التي امتلكت استحسانه وإعجابه ، وإنْ عرف منها الشَّيء الكثير ، واستطاع أن يفرزه ويحدِّد معالمه " (٢)

فالإحساس بالجمال يخلق في النَّفس الأريحية لتقبل البيان التام ؛إذ إنَّ " الجمال شيء يصعب تحديده ، ولكن باستطاعة النّفوس أن تحسّ به وتتذوقه متى أدركته ، وعندئذ تميل إليه ، وتنجذب نحوه ، وتأنس به وترتاح إليه ، وتسعد بالاستمتاع بلذة إحساس المشاعر به ولو تخيّلا ، ويتفاوت النَّاس في قدراتهم على تذوُّق الجَمال والإحساس بدقائقه ، كشأن تفاوتهم في سائر قُدراتهم المادية والمعنوية " (٣)

---

(١) البلاغة العربية ١ / ١٢ .

(٢) البلاغة العربية ١ / ١١ .

(٣) السابق ١/ ٢٠ .

هذا ، ولَيست مُدارسة فنُون البلاغة فحسْب التي تربِّي الذَّوق وتنمِّي الملَكة ، وإنْ كانت في ظنِّي مِن أقوى الوَسائل وأجداها إلى ذلك ، ما دام عند مُنشئ البيان استعداد كافٍ ، وفطرة مُستقيمة .

هذا ، وتتبدَّى أهمية تربية الذَّوق جليَّة في قول ابن الأثير ــ رَحِمه الله ــ : " واعلم أيُّها النَّاظر في كتابي أنَّ مدار علم البيان على حاكم الذوق السَّليم ، الذي هو أنفع من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب وإنْ كان فيما يلقيه إليك أستاذا ، وإذا سألت عمَّا ينتفع به في فنه قيل لك هذا ، فإنَّ الدربة والإدمان أجدى عليك نفعا ، وأهدى بصرا وسمعا ، وهما يريانك الخبر عيانا ، ويجعلان عسرك من القول إمكانا ، وكل جارحة منك قلبا ولسانا ، فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بإدمانك ما أخطاك ، وما مثلي فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طبع سيفا ووضعه في يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلبا ، فإنَّ حمل النِّصال غير مباشرة القتال .

وَإِنَّمَا يَبْلُــغُ الإِنْسَــانُ غَايَتَــهُ ∴ مَا كُلُّ مَاشِيَةٍ بِالرَّحْلِ شِمْلَالُ "[1]

وفي قول ابن الأثير إشارة إلى قسميّ الذَّوق ، وأنَّ الذَّوق يكتسب ، وطريقه الدُّربة والإدمان ومدارسة فنون العلم في أسفار العلماء كالمثل السائر .

أمَّا ابن خلدون ــ رَحِمه الله ــ فقد جعل الدُّربة وطول النَّظر في بيان العرب السبب الأوحد لتنمية الملكات ، إذ نفى أن تتربَّى الملَكات مِن خلال قوانين العلوم التي وقف عليها علماء البيان ، فالملكة عنده " تحصل

([1]) شملال : الناقة الخفيفة السريعة . ينظر : لسان العرب مادة (شمل) .

بممارسة كلام العرب ، وتكرّره على السَّمع ، والتفطُّن لخواص تراكيبه ، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة البيان فإنَّ هذه القوانين إنما تفيد علمًا بذلك اللسان ، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلّها ، وقد مرَّ ذلك .

وإذا تقرَّر ذلك ، فملَكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ إلى وجود النَّظم وحُسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم ، ولو رام صاحب هذه الملكة حيدا عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة ، لما قدر عليه ، ولا وافقه عليه لسانه ؛ لأنَّه لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الرَّاسخة عنده ، وإذا عرض عليه الكلام حائدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجَّه ، وعلم أنَّه ليس مِن كلام العرب الذين مارس كلامهم ، وإنَّما يعجز عن الاحتجاج بذلك ، كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانية ، فإنَّ ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء ، وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب ، حتَّى يصير كواحد منهم " [1]

فحاجة صَاحِب البيان إلى تربية الذَّوق ضرورية ، فلو حصلت تربية الذَّوق وتنمية الملكة البيانية فحسب لكان صاحبها قد حظي بالتوفيق ، فـــــ " تربية الذوق والملكة البيانيّة ، مع تلقائيّة الأداء التعبيريّ لدى إنشاء الكلام كتابة أو ارتجالا ، عند منْ يَمْلك الاستعداد لأن يكون أديبا بليغا

---

(1) مقدمة ابن خَلدون للعلَّامة عبد الرحمن بن محمد بن خَلدون ــ اعتنى بالكتاب : هيثم جمعة هلال ص ٥٩٩ ، ٦٠٠ ــ ط : مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : أولى ــ ١٤٢٨ ه ــ ٢٠٠٧ م .

، هي الكفيلة بتفجير الإبداع المطلوب في الأدب ، بشرط عدم الخروج عن ضوابط قواعد اللّغة وأصول البيان " [١]

فالذَّوق آلة إدراك جمال النَّظم ، وأداة تمييز حُسْن الكلام مِن قبيحه ، فـ " لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السَّامع ولا يجد لديه قبولا حتَّى يكون من أهل الذَّوق والمعرفة ، وحتى يكون ممَن تحدثه نفسه بأنَّ لما تومئ إليه من الحسن واللطف أصلا ، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمُّل الكلام ، فيجد الأريحية تارة ، ويَعْرى منها أخرى ، وإذا عجبته تعجب ، وإذا نبهته لموضع المزية انتبه .

فأمَّا مَن كان الحالان والوجهان عنده أبدًا على سواء ، وكان لا يتفقد مِن أمر النَّظم إلا الصِّحة المطلقة ، وإلا إعراباً ظاهرا فما أقلّ ما يجدي الكلام معه ، فليكن من هذه صفته عندك بمنزلة مَن عدم الإحساس بوزن الشعر والذوق الذي يقيمه به والطبع الذي يميز صحيحه من مكسوره ، ومزاحفَه من سالمه ، وما خرج من البحر ممَّا لم يخرج منه " [٢]

وهنا يشير الشيخ محمد أبو موسى إلى أمر مهمّ ، وهو وجوب الربط بين الذوق والمعرفة فتراه ينهانا عن نسيان ذلك قائلا : ولا تنس الرَّبط الرائع بين الذوق والمعرفة في كلام عبد القاهر لأنَّ الطبع وحده المعبر عنه بالذَّوق يضل ضلالا مبينا إذا لم تكن المعرفة هي نجمه الذي يهتدى به ، ولا شكَّ في أنَّ المراد بالمعرفة : العلم بطرائق العرب وسننها في الإبانة عن معانيها ، ولا شكّ أيضًا في أنَّ كلّ ما في الدَّرس البلاغي هو تحليل

---

(١) البلاغة العربية ١ / ١٢ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٩١ .

لهذه الطَّرائق ، وهذه السَّنن [١] ويؤكِّد شيخنا الفضيل على أنَّ التذوق غير المُؤسَّس على المعرفة ضلال مبين ، والمعرفة غير الناهضة على التذوُّق قدح بلا نار [٢]

هذا ، وقد جعل الإمام عبد القاهر الجُرجَاني الذَّوق والقريحة إحدى الأمور التي يُدرك بها رُتَب الكلام ، وصولا إلى الإعجاز ، فقال في معرض الحديث عن النَّظم ، وأنَّ مرده إلى الذوق : " .. ولسنا نستطيع في كشف الشبهة في هذا عنهم، وتصوير الذي هو الحق عندهم، ما استطعناه في نفس النظم ، لأنا ملكنا في ذلك أن نضطرهم إلى أن يعلموا صحة ما نقول ، وليس الأمر في هذا كذلك ، فليس الداء فيه بالهيِّن ولا هو بحيث إذا رُمْت العلاج منه وجدت الإمكان فيه مع كل أحد مسعفا ، والسعي مُنْجِحًا لأنَّ المزايا التي تحتاج أن تُعْلِمهم مكانها، وتصور لهم شأنها ، أمور خفية، ومعان رُوحانية أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها، وتحدث له علماً بها، حتى يكون مهيأ لإدراكها ، وتكون فيه طبيعة قابلة لها ، ويكون له ذوق وقريحة يجد لهما في نفسه إحساسا بأنَّ مِن شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة ، وممَّن إذا تصفح الكلام وتدبَّر الشعر فرَّق بين موقع شيء منها وشيء " [٣]

ثمَّ إنك ترى الإمام عبد القاهر يقول ما يُنبئ عن أنَّ الذوق ركن ركين

---

(١) ينظر : دلالات التراكيب ــ دراسة بلاغية ــ د محمد محمد أبو موسى ص ١٥ ــ ط : مكتبة وهبة ــ القاهرة ــ ط : ثالثة ــ ١٤٢٥ ه ــ ٢٠٠٤ م .

(٢) ينظر : السابق ص ١٥

(٣) دلائل الإعجاز ص ٥٤٧ .

وأساس متين لعلم الفصاحة بوجه عام ، وتبيان رتب الكلام بوجه خاص :" .. ليس علم الفصاحة وتمييز بعض الكلام من بعض بالذي تستطيع أن تُفْهِمه مَن شئت ، ومتى شئت ، وأنْ لست تملك إذا من أمرك شيئا حتى تظفر بمن له طبعٌ إذا قدحته وَرِيَ ، وقلبٌ إذا أريته رأى ، فأمَّا وصاحبك من لا يرى ما تُريه ، ولا يهتدي للذي تُهدِيه ، فأنت معه كالنافخ في الفحم من غير نار ، وكالمتلمِّس الشمَّ من أخْشَم ، وكما لا تقيم الشعر في نفس من لا فوق له ، كذلك لا يفهم هذا الباب من لم يؤت الآية التي بها يفهم إلا أنه إنَّما يكون البلاء إذا ظن العادم لها أنه أوتيها ، وأنَّه ممَّن يكمل للحكم ، ويصح منه القضاء ، فجعل يخْبِط ويخْلِط ، ويقول القول لو علم غِبَّهُ لاستحيى منه " [1] وهذا القول وحده كاف ، فرحم الله الإمام عبد القاهر ، وجزاه عن العلم وأهله خير الجزاء .

ويتابع الإمام عبد القاهر القول " ولم يكن الأمر على هذه الجملة إلا لأنَّه ليس في أصناف العلوم الخفية ، والأمور الغامضة الدقيقة ، أعجب طريقا في الخفاء من هذا ، وإنك لتتعب في الشيء نفسك، وتكد فيه فكرك ، وتجهد فيه كل جهدك . حتى إذا قلت : قد قتلته علما ، وأحكمته فهما ، كنت الذي لا يزال يتراءى لك فيه شبهة ، ويعرض فيه شك " [2]

ولقد كان للإمام عبد القاهر الجرجاني وكتابيه (الدلائل والأسرار) هذه المكانة مِن بين الأسفار التي اعتنت بقوانين البلاغة وفنونها ؛ لأنَّه ــ

---

(1) الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز والقول في الصَّرفة ، مطبوعة في ذيل دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ص ٦٢٦ .

(2) دلائل الإعجاز ص ٥٥١ .

رحِمَه الله ــ انماز بالحسّ والذَّوق الصَّحيح السَّليم الذينِ منحاه خلودا على تباعد الأزمان لا يزول ، فكتابه أسرار البلاغة " ربما كان أدق كتاب باللغة العربية في الحديث عن ضروب البيان ، وفيه من التفسيرات الجمالية ما يدل على ذوق نقدي أصيل ، وربما كان عيب الكتب التي اعتمدت عليه في البلاغة من بعد أنها جردته من تلك المسحة الجمالية ، وجعلت قواعده أحكاما صارمة ، ليس فيها إحساس الناقد الأصيل ، ولا قوة التعليل الذَّوقي أو الفكري [١]

هذا ، وحاجة الناقد إلى الذَّوق ماسة ، وهي كحاجة الأديب إليه ، ومنبع الذَّوق عند الناقد : الدُّربة والتمرس " فمِن هذه الدربة يتكون ذوق الناقد ، ومنها يستدل على ما جرت به العادة ، فيتمكَّن مِن الحُكم على إحسان الشَّاعر أو إساءته بالنَّظر إلى ما جرت عليه العرب في طريقها ؛ ولا يقف هذا الأمر عند حدود اللفظ ، وما يجوز في الاستعمال ، وما لا يجوز ، بل يتجاوزه إلى دقائق المعاني والصُّور والأخيلة " [٢]

هذا ، فالبلاغة العربية تقوم خير قيام ــ وهذا وحدَه كافٍ ــ على تربيــة الذَّوق الذي يقف على مواطن الجمال ومراتبه ، يقــول صــاحب البلاغــة العربية : " اقتصر البيانيّون في تعريفهم لهذا العلم على عنصر إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة .

وقد رأيت أنّ هذا التعريف ناقص ، لأنّ هذا العلم يهتَمُّ أيضاً بما في الطُّرُق

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ــ نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري ــ د / إحسان عباس ص ٤٢٩ ــ ط : دار الثقافة ــ بيروت ــ لبنان .

(٢) السابق ص ١٦٦ .

الَّتي يبحثُها من عناصر جمالية وإبداعيّة ، ويهتَمُّ بتربيـــة الـــذوق الفنّـــيّ لإِدْراكِ نِسَبِ الجمال والإِبْداع والتمييز بين مستويات الصُّور ودرجاتها جمالا وإبداعا ، وإدْراكِ الصُّوَرِ المبتذلة والصُّوَرِ المرذولة المحرومة من الإِبـــداع أو مِن الجمال ، فأضفت هذه العناصر إلى التعريف " [١]

هذا ، وقد أشاد الإمام عبد القاهر الجرجاني بالذوق إشادة بالغة ، وجعله طريق إدراك النَّظم الذي يُبرز الإعجاز حين قال : " لا يعلم أنَّ هاهنا دقائق وأسرارا طريق العلم بها الروية والفكر ، ولطائف مستقاها العقل ، وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هدوا إليها ، ودلوا عليها وكشف لهم عنها ورفعت الحجب بينهم وبينها ، وأنَّها السبب في أن عرضت المزية في الكلام ووجب أن يفضل بعضه بعضا ، وأن يبعد الشأو في ذلك ، وتمتد الغاية ويعلو مرتقى ويعز المطلب حتى ينتهي الأمر إلى الإعجاز ، وإلى أن يخرج من طوق البشر " [٢]

فالذوق وسيلة علماء هذا الفن لإدراك الإعجاز البياني للقرآن الكـــريم . يقول السَّكاكي ــ رحمه الله ــ : " ومدرك الإعجاز عندي هو الذَّوق لـــيس إلا ، وطريق اكتساب الذَّوق طول خدمة هذين العلمين " [٣]

والذوق منه فطري ، ومنه مكتسب ، يقول التفتازاني : " فإنْ كان حاصـــلا بالفطرة فذاك ، وإنْ أريد اكتسابه فلا طريق إليه سِـــوى الاعتنـــاء بعلمـــيّ المعاني والبيان وطول ممارستهما والاشتغال بهما ، وإنْ جمع بين الـــذَّوق

---

(١) البلاغة العربية ٢ / ١٢٧ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٧ .

(٣) مفتاح العلوم ص ٥٢٦ .

الفطريّ وطول خدمة العلمين فلا غاية وراءه ، فوجه الإعجاز أمـــر مِـــن جِنس البلاغة والفصَاحة " [١]

ثمَّ إنَّ " أصحابُ الذَوق البياني الرفيع يُحْسنون استخدام الفنون البلاغيّة التي يذكرها علماء البلاغة ، وفنونا أخرى يبتكرونها ، فالفنون البيانيّـــة لا تُحصر ، والفكر الإنساني مُؤهَّل لأنْ يبتكر فيها بدائع وروائع جديدة ، تهديه إلى خصائص الإبداع الفنّي التي وهبها الله للإنسان " [٢]

فالشَّواهد على مدى ارتباط الإعجاز بالبلاغة ، وتبيان حظ البلاغة الـــوفير مِن تربية الذَّوق وتنمية الملكة كثيرة ، يضيق المقام بذكرها . والله تعـــالى أعلم .

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٠٧

(٢) البلاغة العربية ١ / ٧١ .

المبحث الرابع :

إصَابَة مَواقِع الاقتناع مِن عَقْل المُخَاطَب .

القول بأنَّ البلاغة هي إصابة مَواقع الاقتناع مِن عَقل المخاطَب قول سديد لا يحتاج إلى برهان ؛ لأنَّ كلّ بيان لا يُلامس عقل المخاطب ولا يقُوده إلى الإذْعان ، ولا يُوعزه إلى التَّسليم هو بَيان ناقص ، لم يُوَفِّ مراد صاحبه ، بل يُصْبح في ظنِّي كبُغام النّوق ، وصِياح الدِّيَكَة ، ونَهِيق الحُمُر وحَشْرجَتها ، ونَعِيق الضِّبَاع وخَفْخفْتها ، فالبيان الفصيح يوجِّه سِهامه نحْو عقل المُتلقي ويُحاول التأثير فيه بكلِّ سَبيل ، وحسْنه مرهون بمقدار ما يطبَع في عقل المخاطَب ونفْسه .

وكما أنَّ صاحب البيان يعرض بيانه على العقل قبل الوجدان ، فكذلك المُخاطَب ، فإنَّ البيان يُوجَّه لِيلامِس عقله ابتداء ، ومِنه إلي فؤاده .

إنَّ حسان بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ كان يقول في معرِض الحديث عن جوهر الشِّعر في نفسه :

وإنَّمَا الشِّعر لُبّ المَرْءِ يَعْرِضُه ∴ عَلَى المَجَالِسِ إنْ كَيْسًا وإنْ حُمُقَا [1]

(١)

فإذا كان الشِّعر عقل صاحبه ، فإنَّ عقول المُتلقِّين هي مَن تستقبِل ذلك البيان ؛ ولذا فإنَّ البليغ يجب أن يَعِي مَواقع الاقتناع مِن عُقول مُخاطبيه فيُلامسها ؛ لأنَّ تلك العقول وحدها مَن تحكم على بيانه بالجودة عند الإصابة ، والرداءة إنْ أخطأ الهدف ، أو لم يصب مُراده .

---

(١) البيت من بحر البسيط . ينظر : ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ص ١٧٤ ــ ط : : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : ثانية ــ ١٤١٤ ه ــ ١٩٩٤ م .

وهذا ابن قتيبة ــ رحِمه الله ــ يصف الشِّعر بأنَّه :" معدنُ علم العرب،وسِفْر حكمتها، وديوان أخبارها، ومستودع أيامها،والسور المضروب على مآثرها،والخِندق المحجوز على مفاخرها،والشاهد العدل يوم النّفار،والحجة القاطعة يوم الخصام" [١]

فعلماء البلاغة أدركوا دون طول عناء أنَّ إصابة مَواقع الاقتناع مِن عَقل المخاطَب مقصد رئيس للبلاغة العربية لا يمكن إغفاله أو السَّهو عنه ، فهذا محمد رشيد رضا ، يعرِّف البلاغة بقوله : " أنْ يَبلغ المُتكلِّم ما يريد مِن نفْس المُخاطَب ، بإصابة مَواقع الاقتناع مِن العقل ، والتأثير في القلب"[٢]

وقال بعضُ أهل الهند : جِمَاع البلاغة البَصر بالحُجّة ، والمعرفة بمواضع الفرصة .. ومن البصر بالحُجة والمعرفِة بمواضع الفُرصة أن تدَعَ الإفصاح بها إلى الكناية عنها ، إذا كان الإفصاحُ أوعَرَ طريقةً ، وربما كان الإضرابُ عنها صفحا أبلَغَ في الدَّرَك وأحقَّ بالظَّفَر [٣]

ألا يحتاج كل صاحب بيان إلى إصابة مَواقع الاقتناع مِن عَقل المخاطَب ، ألا يحتاج إليه الطبيب مع مرضاه ، والمعلّم مع لطلابه ، والمُحامي في ذوده التُّهمة عمَّن يُدافع عنه ، والبائع والدَّلال مع مَن يتعامل معهما ؟

ولذا فقد كانت عبارات المُتقدِّمين في الحديث عن البلاغة تجْري في هذا

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري ١٨٥/٢ ط : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ــ نسخة مصورة عن دار الكتب .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٧ .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ١ / ٨٨ .

المِضْمار ، فقد قيل : إنَّ البلاغة إبلاغ المتكلِّم حاجته بحُسن إفهام السَّامع[١] ، وقيل : إنَّ البلاغة إدراك المطالب وإقناع السَّامع [٢] ، وقيل لخالد بن صَفْوان : ما البلاغة ؟ قال : إِصابةُ المعنى ، وقَصْد الحُجَّة [٣] .

فالاحتجاج " ركن من الأركان التي بنيت عليها البلاغة العربية .. وهو فن يكشف بوضوح عن ثقافة الأديب وقدراته العقلية والنفسية والفنية في استخراج الحجَّة من إيهام الشبهة ، وفي تذليل العاطفة لسلطان العقل وفي تطويع الصورة لخدمة الفكرة ، وبهذا الاندماج الثلاثي يكون الاحتجاج قد أدى وظيفته البلاغية كاملة بشقيها : في البلوغ والإبلاغ أو التأثير والإقناع[٤]

لقد وظَّف القرآن الكريم خطاباته في كثير مِن مواضع سُور القرآن الكريم لمُنكري رسالة نبيِّه الخاتم مُحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم وفي كلّ موضع ــ وراجع بنفسك ــ تجده يتخذ الآليات الحجاجية والإقناعية التي تناسِب مُقتضى حال المخاطَب ، والتي لا تتركه إلا مُسْتسلِما مقِّرا بحجَّة البيان التي ساقها له.

يقول شيخنا الحبيب الدكتور / علي عيسى ، وهو يُبرز أُسس البحث في

---

(١) عروس الأفراح ١ / ١٢٦ .

(٢) السابق ١ / ١٢٥ .

(٣) السابق ١ / ١٢٨ .

(٤) ملخص بحث : الاحتجاج العقلي والمعنى البلاغي ــ دراسة وصفية ــ ناصر السعيدي ــ رسالة دكتوراه ــ تحت إشراف أد / محمد إبراهيم أبو شادي ــ ١٤٢٦ ه ــ جامعة أم القرى ــ كلية اللغة العربية ــ السعودية .

خصوصية بلاغة القرآن الكريم عن غيره مِن كلام النَّاس قاطبة : " الأساس الثالث : استلزام كلّ جملة في القرآن الكريم للإقناع والإمتاع ، واقتضاؤها الحِجَاج الجمالي .

ذلك أنَّ : ذلك الكتاب إجابة وتفصيل لطلب الهداية في : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ والإرشاد إلى الهِداية والدَّلالة على الصراط المستقيم بحاجة إلى عُنصريّ الإقناع العقليّ ، والإمتاع النَّفسيّ ، فيتجاذبه مع الحِجاج جمال يأخذ القلوب ، مع تسليم العُقول به ، ومِن ثمَّ فلن تجد جُملة في الذكر الحكيم إلا وقد بُنيتْ على هذين العُنصرين ، فيعلو أحدهما ويتصاعد في موضع ، وتراه خفيًّا في آخر ، ولكنَّهما لا يَنفكَّان .

وتفصيل ذلك ليس مِن وَكْد هذه الإشارات ، وإنَّما تجدها مبثوثة في ثنايا البناء التركيبيّ للجملة القرآنيَّة ، سَواء في مادة ألفاظ التراكيب ، أو صُوَر الإسناد فيه ، أو هيئتها ، ومِثل هذه لا تكاد تُحْصر " [1]

فقول شيخنا الحبيب ــ أحسَن الله إليه ، ونفع بعلمه ــ : (استلزام كلّ جملة في القرآن الكريم للإقناع والإمتاع ...) قاطع بأنَّ أحد مقاصد فصيح البيان إصابته لمَواقع الاقتناع مِن عَقل المُخَاطَب ، وبالغ تأثيره في النَّفس والفُؤاد ، وكيف لا ، و(لن تجد جُملة في الذكر الحكيم ، إلا وقد بُنيتْ على هذين العُنصرين) ؟ ، ثمَّ إنَّه يفتح الباب على مصراعيه ، لمدارسة الحِجاج العقلي ، وأسباب التأثير ، في كل بيان فصيح ، ولاسيَّما بيان ربّنا سُبحانه وتعالى ، وبيان رسُولنا الكريم ، والوقوف على خَصائصه ، وسمْت بنائه .

([1]) أصول البحث في خصوصية بلاغة النظم الكريم ــ أ د / علي عيسى ص ٣ .

وَمِمَّا هو معلوم في هذا الباب قوله ــ جلَّ شــأنُه ــ : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ (١)

يقول أبو هلال العسكري : " فهذه دلالة واضحة على أنَّ الله تعالى قــادر على إعادة الخلق ، مستغنية بنفسها عن الزيادة فيها ؛ لأنَّ الإعادة ليســت بأصعب في العقول مِن الابتداء ، ثمَّ قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ ، فزادها شرحا وقوة ؛ لأنّ مَن يخرج النار مِن أجزاء الملك ، وهما ضدان ، ليس بمنكر عليه أن يعيد ما أفناه ، ثمَّ قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فقوّاها أيضا ، وزاد في شرحها ، وبلــغ بهــا غايــة الإيضــاح والتوكيد ؛ لأنَّ إعادة الخلق ليست بأصعب في العقول من خلــق الســموات والأرض ابتداء " (٢)

هذا ، والجاحظ ــ رحمه الله ــ جعل غاية بيان البليغ إِصَابَة مَواقِع الاقتناع مِن عَقْل المُخَاطَب ، فيما أسمَاهُ هو : الفهم والإفهام ، فتراه يجعل " مَدَارَ الأمرِ والغايةَ التي إليها يجرِي القائل والسّامع ، إنَّما هو الفَهْمُ

---

(١) سورة يسن : الآيات : ٧٨ : ٨١ .

(٢) كتاب الصناعتين لأبي هِلال العَسكريّ ــ تح : علي محمد البجاوي ــ و/ محمد أبو الفضل إبراهيم ــ ص ١٨ ــ ط : المكتبة العصرية ــ بيروت ــ ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦ م .

والإفهام ؛ فبأيِّ شيءٍ بلغْتَ الإفهامَ ، وأوضَحْتَ عن المعنى ، فذلك هو البيانُ " (١)

ويقول مُبْرزا فضل البيان الذي يُلامس عُقول المخاطبين : " إنَّك إنْ أُوتيتَ تَقريرَ حُجّة اللَّه في عقول المكَلَّفِين ، وتخفيفَ المَؤُونة على المستمعين ، وتزيينَ تلك المعاني في قلوب المريدينَ ، بالألفاظِ المستحسَنة في الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبةً في سُرعة استجابتهم ، ونَفْيِ الشّواغلِ عن قلوبهم بالموعظة الحسنة ،على الكِتاب والسّنّة ، كنْتَ قد أُوتِيتَ فَصلَ الخِطاب ، واستوجبتَ على اللَّه جزيلَ الثّواب " (٢) وهلْ بعد فَصْل الخِطاب عَطاء ؟! أم هل بعده لمُبِين رجاء ؟!

فالحجاج والإقناع مقصِد البليغ ، وغاية يتغيَّاها البيان الفصيح (٣) ألم

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١ / ٧٦ .

(٢) السابق ١ / ١١٤ .

(٣) سُبقت هذه الدِّراسة بدراسة أخرى لي ، أسأل الله القبول ، وقد كان عنوانها : الحِجَاج القُرآنيُّ للكفار وأثره في تحقيق معنى الإخْلاص في سُورة الزُّمَر . وأبرزت هذه الدِّراسة طريقة النظم القرآني في توظيف الحجاج القرآني لتحقيق مرام السُّورة الكريمة ومنشودها ، وكان للإخلاص مقصود السُّورة الكريمة أثر واضح في خصوصية الحجاج القرآني ، حيث إنَّه قد آثر من الأساليب أو الآليات الحجاجية ما يتَّفق وطبيعة تحقيق هذا المعنى في الأفهام ، فأسلوب الفرض والتقدير من أقرب الطرق التي تحقِّق هذا المعنى ، لما فيه من دلالة التأبيد المطلق ، فضلا عن ما يشتمله الأسلوب من المبالغة والتحقيق والتأكيد . =

يجعل ابن الأثير ــ رحمه الله ــ مدار علم البلاغة على استدراج الخصم ، فقال في صدر حديثه عن فنّ الاستدراج : " بل الغرض ذكر ما تضمَّنه مِن النُّكت الدقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم ، وإذا حُقِّق النَّظر فيه علم أنَّ مدار البلاغة كلّها عليه ؛ لأنَّه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ، ولا المعاني اللطيفة الدقيقة ، دون أن تكون مُستَجلِبة لبلوغ غرَض المخاطَب بها .. " (١)

إنَّ النَّاظِر الحَصِيف لجُلّ ألوان البَيان العربي يدرك أنَّها خاطَبت عقل المُتلقِّي في المقام الأوَّل ، بل كان عقله هَدَفها الرَّئيس ، وغايتها المنشودة ، وإنْ شِئتَ فَتأمَّلْهَا لونًا لونا تجد صِدْق القَول بَاديًا غَير خَفِيّ علَى مَن ينظر بعين واحدة حَولاء ، وسوف تأخُذ الدِّراسَة ــ إنْ شاء الله ــ على عاتقها في السُّطور الآتية عرْض الدَّليل الذي يحمل الجاحد قبل المُقرّ ، والعاقّ قبل البارّ ، إلى الإذْعان والتَّسليم .

تَأمَّل حُسْن التَّعليل في عِلم البدِيع تجده يُقرِّر لك المعاني ، ويؤكِّدها في

=وطريق الاستدلال كذلك وهو إحدى الآليات التي دفعت ما قد يتوهم أن غير الله ــ سبحانه وتعالى ــ يمكن أن يتصف بصفات الكمال التي توجب إفراده وحده بالعبادة تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

وأمَّا ضرب الأمثال في السورة الكريمة فقد أبرز في صورة لا تخطئها العين ــ لما يحمله من توضيح وكشف وبيان ــ حقيقة الإخلاص وكأنه يرفع الأستار ويزيل الحجب ، ويكشف عمَّا وراءها مِن خفاء ، وهذه هي طبيعة الأمثال ، وما توظَّف له .

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ــ تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ٢ / ٦٤ ــ ط : المكتبة العصرية للطباعة والنشر ــ بيروت ــ ١٩٩٥ م .

نفْسك ، مع أنَّه عِلَّة مُدَّعاة ، لكن لما ناسبت تلك العلَّة الوصف الذي سِيقت لأجله مِن وجه ، وأصابت عقل المُخاطَب ، الذي رضي بها ، ولم ينكرها ، بل استطرفها ، واستحسنها ، مِن وجه آخر ، عُدَّت حسنة مقبولة .

يقول أحدهم : " تتمثَّل أهمية حُسْن التعليل في اعتباره وسيلة مِن وسائل التفنُّن في القول ، إذ يعتمد على الخَيال ، فصار طريقا مِن طُرُق الإقناع البلاغيّ بما يتَّسم به مِن التفنن في الصَّنعة والطّرافة في التعبير ، والمهارة في تقديم العلَّة للمخاطَب ، والرَّبط بينها وبين المَعلول في إطار مِن التناسُب " (١)

ففي قول المُتنبيّ مثَّلا :

لَمْ يَحْكِ نائلَكَ السَّحابُ وإنَّمَا ∴ حُمَّتْ بِهِ فَصَبِيبُها الرُّحَضَاءُ (٢)

(٢)

إنَّك ترى المُتنبِّي في هذا البيت يدَّعِي أنَّ سبب هطول السَّحاب غيرته الشَّديدة مِن فرط عطاء الممدوح ، وقد كان مِن أثر هذه الغيرة إصابة السَّحاب بالحُمَّى ، الذي كان هطول الماء دليلا بيِّنا على ذلك ، فتراه قد وضْع هذه الصُّورة في موضع مِن مواضع الاقتناع ما جعلَها حسنة مُستطرفة.

والحقيقة أنَّه " إذا أجاد المادح في التماس العلة الخيالية ، وضمَّنها مِن

---

(١) مِن جَمَاليات المَعنى ــ حُسْن التعليل ــ د / عيد محمد شبايك ص ١٠ ــ ط : دار حراء ــ القاهرة ــ مِن دون تاريخ .

(٢) ينظر : ديوان المتنبي ص ١٢٩ ــ ط : دار بيروت للطباعة والنشر ــ بيروت ــ ١٤٠٣ ه ــ ١٩٨٣ م .

التخييل وحسن هيأة تأليف الكلام ، ما يجعلها مُحكمة الصَّنعة ، قويَّة التأثير ، وقعت مِن النَّفس مَوقع الارتياح والرِّضا ، وكانت أجلب للفرح والسُّرور ، وأوجَب للشفاعة والقبول " (١)

وتأمَّل ثانية قول أبي تمام المَشهور ، وهو عَلَم في هذا الباب :

لا تُنْكِرِي عَطَلَ الْكَرِيمِ مِنَ الغِنَى ∴ فالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكانِ العَالِي (٢)

يقول الإمام عبد القاهر ــ رحمه الله ــ : " فهذا قد خَيَّل إلى السَّامع أنَّ الكريم إذا كان مَوصوفا بالعلوّ والرِّفعة في قدره ، وكان الغِنَي كالغَيْث في حاجة الخلق إليه وعِظَمِ نَفْعه ، وجب بالقياس أن يزِلَّ عن الكريم زَلِلَ السَّيل عن الطَّوْد العظيم ، ومعلومٌ أنَّه قياسُ تخييلٍ وإيهامٍ ، لا تحصيلٍ وإحكام ، فالعلّة في أنَّ السيل لا يستقرّ على الأمكنة العالية ، أنَّ الماء سيَّال لا يثبت إلا إذا حصل في موضع له جوانبُ تَدْفعه عن الانصباب ، وتمنعه عن الانسياب ، وليس في الكريم والمال شيء مِن هذه الخلال " (٣)

ففي قول الإمام : (ومعلومٌ أنَّه قياسُ تخييلٍ وإيهامٍ) بيان صريح أنَّ حُسن التعليل مِن الفنون التي تصيب مواقع الاقتناع مِن العقل ؛ لأنَّ القياس أصل مِن أصول الإقناع ، وركن ركين مِن أركان حِجاج النَّفس ، وهو أداة بيضاء مِن أدوات الإقناع ، يصل به البليغ إلى التسليم مِن المخاطَب .

---

(١) مِن جَمَاليات المَعنى ــ حُسْن التعليل ص ١٩ .

(٢) البيت من بحر الكامل . ينظر : شرح ديوان أبي تمام للخطيب التبريزي ــ قدم له : راجي الأسمر ٢ / ٣٨ ــ ط : دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ ط : ثانية ــ ١٤١٤ ه ــ ١٩٩٤ م .

(٣) أسرار البلاغة ص ٢٩٦ .

هذا ، والصُّورة البيانية مِن تشبيه واستعارة وكناية تسخر طاقتها ــ وأيُّ طاقة لها ؟ ــ وتوجه ما تحويه مِن إمكانات نحْو العقل بغية الإقناع والتسليم ، فكانت الصورة البيانية ــ كما ستعرض الدِّراسة من شواهد ــ تدخل على النفس دخول المأنوس المنتظر .

يقول الإمام عبد القاهر وهو يبرز فضل الكناية على التصريح : " ... فينبغي أن تعلم أن ليست المزايا التي تجدها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره ، والمبالغة التي تحسّها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم بخبره إليها ، ولكنّها في طريق إثباته لها ، وتقريره إياها ، وأنَّك إذا سمعتهم يقولون : إنَّ من شأن هذه الأجناس أن تكسب المعاني مزية وفضلاً، وتوجب لها شرفا ونبلا ، وأن تفخمها في نفوس السَّامعين ، لا يعنون أنفس المعاني التي يقصد المتكلم بخبره إليها كالقرى والشجاعة والتردد في الرأي ، وإنَّما يعنون إثباتها لما تثبت له ، ويخبر بها عنه " [1]

ففضل الكناية في كلام الإمام في طريقة إثبات المعنى ، وليست في نفس المعنى ، وهذا يرمز إلى أنَّها تُوجِد لها تلاقيا وحيزا في النفوس ، كما بان أنَّ مِن شأن الكناية تفخيم المعنى في نفوس السَّامعين ، وهذا يدلّ على أنَّها تتوجَّه إلى العقل ، ومِن ثمَّ يكون لها كل هذا التأثير ، وتلك المزيَّة .

وتأمَّل قوله في موضع آخر " .. أمَّا الكناية فإنَّ السبب في أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح أنَّ كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه أنَّ إثبات الصفة بإثبات دليلها ، وإيجابها بما هو شاهد في جودها آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها ساذجا غفلا ، وذلك أنَّك لا تدَّعي

([1]) دلائل الإعجاز ص ٧١ .

شاهد الصفة ودليلها ، إلا والأمر ظاهر معروف ، وبحيث لا يشكّ فيه ، ولا يظنّ بالمخبر التجوُّز والغلَط " [١]

كذلك الاستعارة فإنَّ شيخنا ــ رحمه الله ــ يقول في ذات الموضع : " وأمَّا الاستعارة فسبب ما ترى لها من المزية والفخامة أنَّك إذا قلت : رأيت أسدا ، كنت قد تلطَّفت لما أردت إثباته له من فرط الشَّجاعة ، حتَّى جعلتها كالشيء الذي يجب له الثبوت والحصول ، وكالأمر الذي نصب له دليل يقطع بوجوده ، وذلك أنَّه إذا كان أسدا فواجب أن تكون له تلك الشجاعة العظيمة ، وكالمُستحيل أو المُمتنع أن يعرى عنها ، وإذا صرحت بالتشبيه فقلت : رأيت رجلا كالأسد كنت قد أثبتها إثبات الشيء يترجح بين أنْ يكون ، وبين أنْ لا يكون ، ولم يكن مِن حديث الوجوب في شيء " [٢]

أليس إثبات الصِّفة دليلها بما هو شاهد في وُجُودها دليلا بيِّنا لكلّ ذِي عينينِ على أنَّ الكناية ، ومعها الاستِعارة ، تُخاطِب عَقل المتلقِّي وتحاصره ، حتَّى لا يكن بينه وبين التَّسليم بمضمون الخطاب شيء آخر ؟ ، فالبلاغَة إذًا نفاذ البيان إلى العَقل مُباشرة ، واختراق كلّ مَدَارك الحِسّ عنده ، وهذا أمر تقوم عليه جُلّ ألوان البيان العربيّ مع تفاوت بينها ، إنْ لم يكن الجميع ، وحسب الدِّراسة ما تعرَّضت إليه ، والله تعالى أعلم .

هذا ، ويرى المُتأمِّل لكلام عبد القاهر عند قول المُتنبيّ :

وَمَا التأنيثُ لاسم الشمسِ عَيْبٌ ∴ ولا التذكيرُ فخرٌ للهلال [٣]

---

(١) السابق ص ٧٢ .

(٢) السابق ص ٧٣ .

(٣) ينظر : ديوان المتنبي ص ٢٦٧ .

ما للبيان من فضل حين يصيب مواقع الاقتناع ، بحجة صحيحة ترتضيها العقول وتسلّم بها ، إذ يقول : " فحقّ هذا أن يكون عنوانَ هذا الجِنس ، وفي صدر صحيفته ، وطِرازًا لديباجته ، لأنَّه دفعٌ لنقص ، وإبطالٌ له ، من حيث يَشْهَدُ العقل للحجّة التي نطق بها بالصّحة ، وذلك أنَّ الصِّفات الشريفةَ شريفةٌ بأنفُسها ، وليس شرفُها مِن حيث الموصوف " (١)

.... وهكذا بان لي أنَّ فنون البلاغة ، تجعل هدفها الرَّئيس عَقل المُخاطَب ، وأنَّ البيان يتفاوت حُسْنا تبعا لمدى إصابته مِن عقل المُخاطب ، والله أعلم .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣٥٦

المبحث الخامس :
تحقيق الإمتاع النَّفسيّ والتأثير العاطفيّ

لا بدَّ للبيان الفصيح مِن أثَر بَيِّن على وِجدان المُتلقِّي ، ولا بدَّ أنْ يكون له تأثير نافذ في فؤاده ، ففصيح البيان إنْ لم يطرق على فؤاد المخاطب المَعنيّ بالبيان ، ويُصيب منه ما يريده مُنْشؤه ، حزنا كان أو سرورا ، هو والعدم سَوَاء ، ولذا فإنَّ القلب يعكِس في النَّفس صَدى البيان مِن صحة أو فساد ، وبمقدار ما يطْبع تكون دَرجة البيان ، قوَّة وضعفا ، وصحَّة وفسادا .

فمِن البيان ما " يستعطف المستشيط غيظا ، والمندمل حقدا ، حتى يطفئ جمرة غيظه ، ويسل دفائن حقده ؛ وإنّ منه لما يستميل قلب اللئيم ، ويأخذ بسَمع الكريم وبصره ؛ وقد جعله الله تعالى بينه وبين خلقه وسيلة نافعة ، وشافعاً مقبولا ؛ قال تبارك وتعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ " (١)

فالمعلوم أنَّ البلاغة العربية قرَّ فيها " هذا الارتباط بين الأدب والنَّفس الإنسانية ؛ لذلك حفلت كتب النُّقاد والبلاغيين بوقفات متعدِّدة تشير إلى قيمة الأثر النفسيّ الذي ينتجه الأدب في النُّفوس المُتلقية ، وتأتي جُهُود الإمام عبد القاهر الجرجاني لتتربَّع على قمَّة العناية النفسية ؛ إذ برز اعتناؤه بالأثر النَّفسي بروزا واضحا في كثير مِن مباحثه البلاغية ، فكان بحثه

---

(١) العِقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ــ تحقيق : محمد سعيد العريان ج ٢ / ص ٢ ــ ط : المكتبة التجارية الكبرى ــ ١٣٧٢ ه ــ ١٩٥٣ م .
والآية من سورة البقرة : آية ٣٧ .

البلاغيّ استقراء لأسرار النَّفس الإنسانية ، وما ينتابها مِن ألَــق وسُــرور ومُتعة ، عندما يرد عليها النصّ البياني " [١]

إنَّ البيان الفصيح أول ما يتوَجَّه ، يطرق السَّمع ، فــإذا قبلتــه الأذن ، ونفذ منها ، نفذ إلى الوجدان ، فإنْ كان صحيحا بانَ صداه على الــنَّفس ، وإنْ لم يكن ، لَفَظَه القلب ، فلا يرى له على النَّفس حال أو أثر .

يقول الإمام عبد القاهر : " ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصِّفة ، وينسب فيــه الفضل والمزية إليه دون المعنى ، غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة ، ثمَّ تبرجّها في صورة هي أبهى وأزين ، وآنق وأعجب ، وأحق بأن تستولي على هوى النَّفس ، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب ، وأولى بأن تطلق لسان الحامد ، وتطيل رَغْم الحاسد " [٢]

كَمَا أنَّ المُتأمِّل لقول عُمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه وعن صــحابة رسول الله أجمعين ــ : " أفضلُ صِناعات الرَّجل الأبيات مِن الشِّعر ، يُقدِّمها في حاجاته ، يَستعطف بها قلبَ الكريم، ويستميل بها قلب اللئيم " [٣] يُدرك فضْل البيان الفصِيح مِن وجه ؛ إذ عدَّه سَيّدنا عمر ــ رضــي الله عنــه ــ

---

(١) البلاغَة والأثَر النَّفْسيّ ــ دراسة في تراث عبد القاهر الجُرجَاني ــ للباحث : عبد الله عبد الرحمن أحمد ــ رسالة ماجستير ــ مخطوطة ــ ص ٣ ــ كلية اللغة العربية ــ جامعة أم القرى ــ السعودية ــ ١٤٢٢ ه ــ ٢٠٠٢ م ــ تحت إشراف الدكتور : صالح سعيد الزهراني .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٤٣ .

(٣) العقد الفريد ٦ / ١٠٨ .

أفضل صِناعات الرَّجل ، كَمَا يتبيَّن له مِن وجه آخر أنَّ أفضل البيان ما كان له علَى المُتلقِّي أثر ، ولا شكَّ أنَّ هذا الأثر هو غاية البيان ومقصوده .

هذا ، وإنَّ لمراعاة قواعد البلاغة أثرا قويا في النَّفس ، ردِّد قول المطعني ــ رحمه الله ــ وهو يقول : " ولا شكَّ أنَّ البليغ الذي يُوفَّق لأنْ يضع أسلوبه على هدى مِن توجيهات البلاغة والفصاحة موضع إعجاب كبير عند العالِمينَ بجودة الأسلوب وأثره القويّ في النَّفس " (١)

إنَّ البيان تتفاوت درجته ، وتتعاظم قيمته ، ويتميَّز مِن نظيره ، ويكون محل الرفعة والإعظام والتقدير بقدر ما يُوقعه في نفْس المُتلقِّي مِن معان ، تتحرَّك بسببها نفْس المُتلقِّي ، يقول الإمام عبد القاهر : " فالاحتفال والصَّنعة في التصويرات التي تروق السَّامعينَ وتَرُوعهم ، والتخييلات التي تهزُّ الممدوحين وتُحرّكهم ، وتفعل فعلا شبيها بما يقع في نفس النَّاظر إلى التصاوير التي يشكِّلها الحُذَّاق بالتَّخطيط والنقش ، أو بالنَّحت والنقر ، فكما أنَّ تلك تُعجب وتَخْلب ، وتَروقُ وتُؤْنِق ، وتَدْخُل النَّفسَ من مشاهدتها حالةٌ غريبة لم تكن قَبْلِ رؤيتها ، ويغشاها ضربٌ من الفتنة لا يُنكَر مكانه ، ولا يخفى شأنه ، فقد عَرَفْت قضيَّة الأصنام ، وما عليه أصحابها من الافتتان بها والإعظام لها ، كذلك حكم الشِّعر فيما يصنعه مِن الصُوَر ، ويُشكّله من البِدَع ، ويوقعه في النفوس مِن المعاني التي يُتوَّهم بها الجماد الصامتُ في صورة الحيّ الناطق ، والمواتُ الأَخرس في قضية الفصيح المُعرب والمُبيّن المميِّز ، والمعدومُ المفقود في حكم الموجود المشاهَد " (٢)

---

(١) خصائص التعبير القرآني ١ / ١٨٥ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

هذا ، وعلى البليغ أنْ يعرف كيف يكون لبيانه الصَّدى المنْشود في نُفُوس المُخَاطَبين ويدرك أنَّ لكلّ فئة مِن جمهور المخاطبين مؤثرات خاصة ، ومِن ثَمَّ فإنَّ الواجب على البليغ أنْ يعرف حال مخاطبه قبل مواجهته لبيانه ، ولا أدلّ على ذلك مِن خِطاب الأب لأولاده ، فهو لِعُمْق إدراكه بحالهم ، يعرف مَواطن التأثير في وجدانهم ، فإذا ما توَجَّه إليهم بيانه ، صادف قبولا لا يوصف .

يقول حازم القرطاجني في مَعرِض الحديث عَن المُحاكاة التشبيهية : " وليست المحاكاة في كل موضع تبلغ الغاية القصوى من هزّ النّفوس وتحريكها ، بل تؤثر فيها بحسْب ما تكون عليه درجة الإبداع فيها ، وبحسْب ما تكون عليه الهيئة النطقية المقترنة بها ، وبقدر ما تجد النفوس مستعدَّة لقبول المحاكاة والتأثُّر لها " (١)

وكلام حازم ــ رَحِمه الله ــ هنا يجعل مرتبة المُحاكاة التصويرية أو التشبيهية مِن التأثير ، قوَّة وضعفا ، مَرهُونة بأمور ثلاثة :

الأول : حَال البيان ذاته مِن الإبداع والتَّميُّز ، وهذا الأمر في ظنِّي جَدير بأنْ يكون مُقدَّما علَى غيره ، فذات البيان أو المُحَاكاة التي يقصدها (حازم) يجب أن تتَّصف بالتأثير قبل النَّظر لأحوال أخرى .

وقد بسط هذا الأمر وفصَّله عند قوله : " فتحرّك النفوس للأقوال المخيلة ، إنَّما تكون بحسب الاستعداد ، وبحسب ما تكون عليه المحاكاة في نفسها ، وما تدعم به المحاكاة وتعضّد ، ممَّا يزيد به المعنى تمويها ، والكلام حسن

---

(١) مِنْهاج البُلغاء وسِراج الأدباء لأبي الحسن حازم القرطاجني ــ تحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجة ص ١٢١ ــ ط : دار الغَرب الإسلامي ــ بيروت ــ لبنان .

ديباجة ، مِن أمور ترجع إلى لفظ أو معنى أو نظم أو أسلوب " [١]

ويقول : " ولهذا نجد الإنسان قد يقوم المعنى بخاطره على جهة التذكّر ، وقد يشار له إليه ، وقد يلقى إليه بعبارة مستقبحة ، فلا يرتاح له في واحد مِن هذه الأحوال ، فإذا تلقَّاه في عبارة بديعة اهتزّ له وتحرَّك لمُقتضاه " [٢]

(٢)

الثاني : الهيئة النّطقية المُقترنة بالمُحاكاة ، ولعلَّه هنا يُشير إلى طَرِيقة الإلقاء ، وهذا يَعْني أنَّ لهيئة الإلقاء أثرا فاعلا في هزّ النّفوس وتحْريكها ، وأنَّ تأثير البيان يتوقَّف كذلك أيضًا علَى الطَّريقة التي يَنتقل بها البيان مِن المُبِين المُعرِب عمَّا في ضمير ذاته مِن مَعانٍ ، إلى المُتلقِّي .

الثالث : حَال النّفوس المُتلقية للبيان ، وهذا أمْر في غاية الأهمية ؛ لأنَّ مَجيء البيان مُتناسبا لحَال المُخاطَبين لا ينفكّ عن خَصائص أو مقاصد البيان الفصيح ، كما أسلفت الدِّراسة .

وقد قسم حازم ــ رَحِمه الله ــ الاستعداد إلى نوعين فقال : " والاستعداد نوعان : استعداد بأن تكون للنفس حال وهوى قد تهيأت بهما لأنْ يحركهما قول ما ، بحسب شدة موافقته لتلك الحال والهوى ، كما قال المتنبي :

إنَّمَا تُنْجحُ المَقَالةُ فِي المَــر ∴ ءِ إذا صَادَفَتْ هَوَى فِي الفُؤَادِ [٣]

(٣)

والاستعداد الثاني : هو أن تكون النّفوس معتقدة في الشعر أنَّه حكَم ، وأنه

---

(١) مِنْهاج البُلغاء لحازم القرطاجني ص ١٢١ .

(٢) السابق ص ١١٨ .

(٣) ديوان المتنبي ص ٤٦٣ بلفظ : (إذا وافقتْ هَوَى فِي الفُؤَادِ) .

غريم يتقاضى النّفوس الكريمة الإجابة إلى مُقتضاه ، بما أسلبها مِن هــزّة الارتياح لحُسن المحاكاة " [١]

هذا ، وعلى صَاحب البيان ألَّا يغفل ابتداءً شَرائط صِحة الكلام ، قبــل إدراك مَواطن التأثير ؛ لأنَّ " معرفة قوانين النَّحو ، والمعاني ، والبيــان ، شرط فيها ، ولكنَّها غير كافية للوصول إليها ، بل لا بدَّ مِن الهدايــة إلــى أسباب كون الكلام مؤثرا ، وإيراد الشَّواهد والأمثلة الكثيــرة فــي المعنــى الواحد ، والموازنة بين الكلامين يتَّفقان في المعنى ، ويختلفان في التأثير ، كقول المُعبّر الأول لذلك الملك الذي رأى في نومه أنَّه فقد جميع أســنانه : أنَّ جميع أهله ، وذوي قرباك يُهلكون ، وقول المعبّر الثاني لــه : الملــك يكون أطول أهله عُمرا ، وهذا المذهب هو الذي ذهب إليه الإمام عبد القاهر في كتابه : دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة " [٢]

وهذا التَّأثير قد يكون خفيًّا ، فلا يتأتَّى لكلّ مُتلقٍ الوقوف على أوجُه التأثير ، بل يكون إدراك ذلك لصاحِب الذَّوق السَّليم فحَسب ، يقول الدكتور / محمود توفيق : " الذي هو أبين عندي أنّ معالم الحسن في البيان درجات : منها ما يبلغ شأنا لا تكاد الألسنة قادرة على الإفصاح عن سببه ؛ لعلو قدره وسموّ شرفه ، فهو مما يتبينه القلب ولا يجد اللسان قدرة على الإيضاح عن تلك الدرجة مِن الحُسن والجمال ، أمَّا ما دون ذلك فإنَّها غير

---

(١) مِنْهاج البُلغاء ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(٢) يُنظَر ما كتبه : السيد محمد رشيد رضا في فاتحة كتاب : دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ص ٧ ــ ط : المكتبة التوفيقية ــ الحسين ــ مصر ــ من دون تاريخ .

مستعصية على التعليل والتبيين معا . وأنت إذا ما كشفت أسبـــاب كثير من درجـــات الحســـن ، وبقيت منه درجة لشرفها وسموها لا يطاق الإفصاح عنها ، فليس ذلك من التذوق الانطباعي في شيء .

والإمام عبد القاهر نفســـه يقع تحت سلطان هذا، فهو لا يعلـــل أحيانـــا ولا يبين عن العلة، وأحيانا يحيلنا على ما نجد في أنفسنا من غير أن يضع يده أو أيدينا على معـــالم الحســـن وأسبابـــه ، وهذا ظاهر لمن يتلـــو كتابيـــه "الدَّلائل" و"الأسرار " [١]

هذا ، ويَتَأتَّى تأثير البيان في نفُوس المُتلَقين " للمُبدع الـــذي يُحســـن توظيف تقنيات التعبير التصويري والأسلوبي ، ولكن هذا التصوير ليس نقلا آليا للأشياء ، بل هو إنتاج جديد للأشياء يرتبط بذاتية المُبـــدِع ، وموقفـــه الخاص مِن القيم والأشياء ، فالكائنات في وجودها الواقعي تظـــل حبيســـة صورة واحدة ، فيأتي المبدِع ليضفي عليها ظلاله وبراعته ، فيخرجها مـــن واقعها إلى واقع جديد ، تشعر معه النَّفس المتلقية بمُتعـــة وأريحيـــة ؛ لأنَّ المبدِع استطاع أنْ ينتشلها مِن الواقع الحقيقي ، إلى واقع أكثر تأثيرًا فـــي النَّفس الإنسانية " [٢]

ولا شكّ أنَّ" إثارة العواطف ــ وهي أهمّ عنصر في الأدب ــ تعتمد إلـــى درجة كبيرة على ما للكلام مِن نَظم ، فإنَّا نرى أنَّ المَعنى قد يكون مطروقا

---

(١) راجع : نظرية النظم ــ د / محمود توفيق .

(٢) البلاغَة والأثَر النَّفْسيّ ص ١٣ .

شائعا ، حتَّى إذا أجيد نظمه خرج كأنَّه جديد " [١] ، فـ " البلاغة هي قانون الصِّلة بين الكاتب والقارئ " [٢]

هذا ، ولتأثير البيان في النَّفس أمـارات ودلائـل ، ومـن تلـك " .. الاهتزاز والأريحيَّة والطرب دلائل علَى تقبُّل وتواصل النَّفس الإنسانية للأثر البيانيّ ، والقلق والوحشة دلالة على عدم تقبُّل النَّفس لخلل ما في التصوير أو التركيب البيانيّ " [٣]

بل الأمر في نفس متذوقه أوقع من ذلك بكثير ، يقول أحد نقاد الشِّعر: " فإذا ورد عليك الشِّعر اللطيف المعنى ، الحلو اللفظ ، التام البيان ، المعتدل الوزن ، مازج الروح ، ولاءم الفهم ، وكان أنفذ مِن نفث السِّحر، وأخفـى دبيبًا مِن الرّقى ، وأشد إطرابا من الغناء ، فسلَّ السَّخائم ، وحلـل العقـد ، وسخى الشحيح ، وشجع الجبان ، وكان كالخمر في لطف دبيبه وإلهائـه ، وهزه وإثارته " [٤]

وفي ظنِّي أنَّ ذلك التأثير البديع في النَّفس الإنسانية ، مُرهفـة الحـسّ والشّعور ، ليس خاصًّا بالشِّعر فحسب ، فكلّ بيان فصيح قد تشـرَب مِـن الحُسن ، وكان صاحبه بصيرا بجواهر الكلام ، ويحسن انتقاءها ووضـعها

---

(١) النقد الأدبي ــ أحمد أمين ص ٣٣ ــ ط : دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ــ بيروت ــ لبنان .

(٢) أصول النقد الأدبي ــ أحمد الشايب ص ٦٨ ــ ط : مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ــ الطبعة العاشرة ــ ١٩٩٤ م .

(٣) البلاغَة والأثَر النَّفْسيّ ص ١٩ .

(٤) عيار الشعر ص ٢٢ .

في موضعها الأشكل بها ، كان لبيانه في مدارك النَّفس والشعور هذا الأثر الفاعل .

بل إنَّ من وجوه إعجاز كتاب الله الكريم : " الرَّوعة التي له في قلوب السَّامعين وأسماعهم ، سَواء المُقرّين والجاحدين ، ثمَّ إنَّ سامعه إنْ كان مؤمنا به بداخله روعة في أول سَماعه وخشية ، ثمَّ لا يزال يجد في قلبه هشاشة إليه ومحبة له ، وإنْ كان جاحدا وجد فيه مع تلك الرَّوعة نفورا وعيّا ، لانقطاع مادته بحسن سمعه " (١)

تأمَّل كلمة الزَّركشيّ ــ رَحِمه الله ــ تجده قد أبان لك فيها عن أثر فصِيح البيان في سَمْع المُتلقِّي وقلبه ، وتُدرك أنَّ التأثير مِن أهمّ مَقاصِد البيان الفصيح ، وهو وَجه نيِّر مِن وجوهه .

واسمع مَعي للخطابي ــ رحِمه الله ــ وهو يقول مُتحدِّثا عن القرآن الكريم : " .. وقد كانوا يجدون له وقعا في القلوب ، وقرعا في النفوس ، يريبهم ويحيرهم ، فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعا مِن الاعتراف ، ولذلك قال قائلهم : إنَّ له لحلاوة ، وإنَّ عليه لطلاوة .. " (٢)

بل إنَّ البيان البليغ المستميل للنفوس المصيب إياها ــ وهذا فحَسْب لبالغ تأثيره في النّفوس ــ يشبه كثيرا بالسِّحر ، فقد روي أَنَّهُ قَدِمَ رَجُلاَنِ

---

(١) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي ــ تح : مصطفى عبد القادر عطا ص ٣١٠ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان .

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني ــ تح : محمد خلف الله أحمد ، و / محمد زغلول سلام ص ٢٨ ــ ط : دار المعارف ــ مصر ــ ط : ثالثة ــ من دون تاريخ .

مِنَ الْمَشْرِقِ ، فَخَطَبَا ، فَعَجِبَ النَّاسُ لِبَيَانِهِمَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ــ صلَّى الله عليه وسلَّم ــ : إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا ، أَوْ إِنَّ بَعْضَ الْبَيَانِ لَسِحْرٌ [١]

فوصف البيان بهذا الوصف وصف محمود ينبئ عن بالغ تأثيره في النّفوس ، فقد " قالوا : وتشبيهه بالسِّحر مدح له ؛ لأنَّ معنى السِّحر الاستمالة ، وكلّ مَن استمالك فقد سحرك ، وكان رسول الله ــ عليه السَّلام ــ أميز النَّاس بفضل البلاغة لبلاغته ، فأعجبه ذلك القول واستحسنه ، ولذلك شبَّهه بالسِّحر " [٢]

فبلاغة الكلام " تسحر الألباب حتَّى تُحيل العرض جوهرا ، وتحيل الهواء المدرك بالسَّمع لانسجامه وعذوبته في الذَّوق نهرا " [٣]

هذا ، ومِن شرط البيان الفصيح نفاذه إلى السَّمع دون نبو ، فالحقيقة أنَّ دارس البلاغة لا يعْدَم مِن إمتاع سَمعه ؛ إذ إنَّ البيان الفصِيح يصل إلى الأُذن ، فتشعر بلذَّة وأريحيَّة ، وأُنس وطَرب ، ولا تجد النَّفس السَّوية له نابية كارهة ؛ لأنَّ البيان الفصيح يدخل إلى الأذن مِن دُون استئذان ، ويَنساب إليها كَما ينْساب الماء إلى المَجارى الخفيضة بيُسر وسهولة .

إنَّ البلاغة العربيَّة جعلت نفاذ البيان إلى السَّمع دُون نبوّ أثرا أو وسْما على حُسْن البيان ؛ لأنَّ السَّمع في اعتقادي مدخل البيان إلى النَّفس والفؤاد ، فإذا كان المسموع نابيا حجزته الأذن ، ولم تدعه يبلغ الفؤاد بحال ؛ لأنَّ

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال ــ علَّق عليه : أبو تميم ياسر بن إبراهيم ٩ / ٤٤٦ ــ ط : مكتبة الرشيد ــ الرياض ــ السعودية ــ من دون .

(٢) شرح صحيح البخاري ٩ / ٤٤٨ .

(٣) صبح الأعشى ١ / ٣٣٦ .

القلب قد يفهم أنَّ النافذ إليه كريه غير محمود ، فالسَّمع هو بلا شكّ الناقد الأوّل ، والمُتذوِّق المُتحكِّم في نَفاذ البيان أو حجبه .

يقول حازم القرطاجني : " يشغل النَّفس تأذّي السَّمع عن التأثُّر لمُقتضى المُحاكاة والتخييل ، فلذلك كانت الحاجة في هذه الصِّناعة إلى اختيار اللفظ ، وإحكام التأليف أكيدة جدا " (١)

ثمَّ إنَّه لا ينبغي أنْ نغفل دور الصَّوت والإيقاع في التأثير ــ وهو مهمَّة كلّ بَيَان فصيح ــ علَى المُتلقِّى ، ولذلك فالناظر يدرك أنَّ " القرآن الكريم ما جاء أسلوبه على ما جاء عليه من انسجام واتساق وتوازن يشبه المُوسيقى إلا ليحقِّق الغاية مِن التأثير واللفت والجذب لكلّ المُستمعينَ والمُخاطبينَ على اختلاف عقائدهم ومستوياتهم ؛ لأنَّ النَّاس جميعًا يستهويهم جمال الإيقاع ، وحسن الأداء " (٢)

إنَّ كراهة المَسموع حين يتَّصف بها البيان تعزله عن الفصَاحة بالكلية ، وقد رأينا البلاغيين حِين عدَّدوا أسباب فصاحة الكلمة جعلوا سلامة الكلمة عن الكراهة في السَّمع أحد أسباب فصاحتها ، فقد نُقل عنهم أنَّهم عابوا كثيرا مِن الكلمات ؛ وذلك لأنَّ " اللَّفظ من قبيل الأصوات ، والأصوات منها

---

(١) منهاج البلغاء ص ١٢٩ .

(٢) البَلاغة الصَّوتية فِي القرآن الكريم ــ د / محمد إبراهيم شادي ص ١٢ ــ ط : شركة الرسالة للإنتاج والتوزيع والإعلان ــ الدقي ــ القاهرة ــ ط : أولى ــ ١٤٠٩ ه ــ ١٩٨٨م .

ما تستلذّ النفسُ بسماعه ، ومِنها ما تكره سماعَه " [1]

لكنَّ البلاغيين لا يُنكرون الكلمة الشَّديدة على السَّمع حين توائِم مُقتضاها ، بل تكون الأبلغ والأوفق ، وغيرها مِن الكلمات التي تنْساب إلى الآذان لا تحل محلها ولا تستقر استقرارها ، وهذا يعُود بنا مرة ثانية إلى القول بأنَّ تناسُب البيان لمُقتضاه مِن المقاصِد العُظْمى ، والغايات الأسمى .

فلا يُمكن إذًا بحال إنكار أثر النَّغم والإيقاع ؛ لأنه يُطلب ليحقّق بعض أغراض ومقاصد صاحبه ، فمَن يتأمَّل كتاب الله ، يجد " إيقاعًا مُوسيقيا متعدِّد الأنواع ، يتناسَق مع الجوّ ، ويُؤدّي وظيفة أساسية في البَيان " [2] فالبيان الذي لا يكون له صدى قوي في فؤاد المخاطب وأذنه ، هو أبعد ما يكون عن وصف البيان ، وهو حينئذ كبُغام النّوق ، وصِياح الدِّيَكَة ، ونَهِيق الحُمُر ، ففؤاد المتلقي وسمعه أحد مقاصد البليغ ، كما بان .

وفي خاتمة القول عقب هذين المقصدين يحسن بنا أن نستدعي كلمات : (النبأ العظيم) التي تبرز وصف البيان التام بقوله : " في النَّفس الإنسانية قوتان : قوة تفكير وقوة وجدان وحاجة كل منهما غير حاجة أختها ، فأمَّا إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته وعن الخير للعمل به ، وأمَّا الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء مِن لذة وألم ، والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين ، ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين ، فيؤتيها حظها مِن

---

(1) المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي ــ تح : محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون ١ / ١٨٧ ــ ط : مكتبة دار التراث ــ القاهرة ــ ط : ثالثة .

(2) التصوير الفني في القرآن ــ سيد قطب ص ١٠٢ ــ ط : دار الشروق ــ القاهرة .

الفائدة العقلية والمُتعة الوِجدانية معا " (١)

وهذا يُترجم بوضوح وُجوب اتصاف البيان بالأمرين معًا في آن واحد وبمقدار يجعل التوفيق بينهما كائنا : إقناع العقل وإمتاع العاطِفة ، فـــ " المعاني المقنعة قد تكون ممتعة إذا توشحت بالتخييل والتصوير ، والمعاني الممتعة قد تكون مقنعة إذا استنبطت بقوة الفكرة وثاقب النظرة " (٢) والله تعالى أعلى وأعلم بالصَّواب .

---

(١) النبأ العظيم ــ نظرات جديدة في القرآن ــ د محمد عبد الله دراز ص ١١٤ ــ ط : دار الثقافة ــ الدوحة ــ قطر ــ ١٤٠٥ ه ــ ١٩٨٥ م .

(٢) الاحتجاج العقلي والمعنى البلاغي ــ دراسة وصفية ــ ناصر بن دخيل الله بن فالح السعيدي ص ٣٥٠ ــ رسالة دكتوراه ــ تحت إشراف أد / محمد إبراهيم أبو شادي ــ ١٤٢٦ ه ــ جامعة أم القرى ــ كلية اللغة العربية ــ السعودية .

خاتمة الدِّراسة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصَّالحات ، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الرِّجالات ، سيدنا محمَّد ــ صلَّى الله عليه وسلَّم ــ الذي أيَّده الله بالمُعْجزات ، وكان أشرفها وأجلّها الوحْي بالآيات البيِّنات .

اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِيَ الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي ، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي ، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي ، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ [1]

أمَّا بعد :

فقد أخَذَت هذه الدِّراسة علَى عاتقها تبيان مقاصد البلاغة العربية الرَّئيسة ، وهو أمْر بالغ الأهمية ؛ إذ يَتجلَّى مِن خِلال تلك المقاصد مَا جعل عِلم البلاغة العربيَّة مِن أشرف العُلُوم وأجلّها ، وقد كان التأصيل العلميّ الصحيح لتلك المقاصد مِن التُّراثين : (النقدي والبلاغي) غاية لم تغبْ عن البال بحال .

هذا ، ومقاصد العلوم في ظنِّ الدِّراسة يُقصَد بها : أهدافها الكلية التي تحاول كلّ فنون العلم صغيرها وكبيرها على تحقيقها والوصول إليها ،فموضوع كلّ عِلم يبرز جليًّا في مقاصده .

وكلّ العلوم يجب أن تكون مقاصِدها مقرَّرة في الأذهان ومؤكَّدة ، وفي الظَّنّ أنَّ أوَّل ما يجب معرفته عند الشُّروع في طلب أي علم هو المقاصِد

---

(1) حديث صحيح . ينظر : صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري لمحمد ناصر الدين الألباني ١ / ٢٥٠ ــ ط : دار الصدّيق ــ ط : أولى ــ ١٤٢١ هـ . باب دعوات النبي صلَّى الله عليه وسلَّم .

والمراشِد ، كي يسير القاصِد بحقّ على هُدى وبصيرة مِن أمره .

وقد خرجت هذه الدِّراسة ــ بعد توفيق الله تعالى ــ بعدة نتائج ، يُمكن عدّ أبرزها فيما يأتِي :

أولًا : التأكيد على شَرَف عِلم البلاغة العربية عن غيره مِن العلوم قاطِبة ؛ لأنَّه الوَسيلة الوَحيدة التي تُبرز صِدق الوَحي الشَّريف .

كَمَا أنَّ حاجَة الكاتب ، وكلّ مُبين عمَّا في ضَمير نفْسه ، إلى علُوم البلاغة ، كحَاجة الإنْسان إلى الطَّعام والشَّراب .

ثانيًا : تحقيق البيان لمقاصده المرجوة أمارة على بلوغه حدّ التمام ؛ لأنَّ ميزان البيان التَّام الذي به يقاس الكلام قوة وضَعْفا هو مقدار ما يُحقّقه مِن مقاصِده وغاياته .

ثالثًا : البلاغة في المقام الأول عِلم قُرآنِي ، هدَفه مُدارسة كتاب الله المُعْجز الذي لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خلفه ، ومِن ثمَّ فإنَّ كلّ بيان غير القرآن الكريم وسيلة يتوصّل بها إلى غايَات أسْمَى وأجَلّ .

رابعًا : مقاصد البلاغة العربية الرَّئيسة التي وقفتْ عليها هذه الدِّراسة ، واطمأنَّتْ ، بعد استنطاق التُّراث العربي في هذا الشَّأن ، خَمسة :

المقصد الأوَّل والأهمّ : الوُقوف عَلَى مَراتِب النَّظم العَالي سبيلا إلى إدراك الإعجاز البياني لنَظم كِتاب ربِّنا ــ عزَّ وجلَّ ــ وسنَّة رسولنا الكريم صلَّى الله عليه وسلَّم .

المقصد الثاني : تناسُب البيان الفَصيح لمُقْتضاه .

المقصد الثالث : تربية الذَّوق وتنمية الملَكات .

المقصد الرابع : إصابة مواقع الاقتناع من عقل المخاطب .

المقصد الخامس : تحقيق الإمتاع النَّفسيّ والتأثير العاطفيّ .

خامسًا : لمَّا كان الوضوح والبيان ليس مقصدا لازما شأنه شأن الإيهام والإبهام فإنَّ الدراسة لم تعدّهما مِن مقاصِد البلاغة العربية الرئيسة.

فوضوح البيان كما أبرزت الدراسة ليس شرطًا لازمًا في كلّ بيان ؛ إذ قد يكون الإيهام المراد منه دفع المحذور مع الصِّدق الأنسب للحال والأوفق ، ومِن هنا فإنَّ للبلاغة العربية مقاصد فرعية أخرى .

سادسًا : تناسُب البيان بشكل عام ، وتناسبه لمُقتضيات أحْواله بشكل خاص ، مِن أجَلّ مقاصِد البلاغة العربية ، وأعلاها ، وتحقُّقه وحده دون غيره مِن مقاصِد ، يرشد إلى حسن البيان من وجه ، ويُومِئ إلى فِطنة المُتكلِّم ورُشده من وجه آخر .

وبلوغ القرآن الكريم : (حروفا وألفاظا وأساليب) هذه المرتبة الأعلى مِن الفصاحة والبلاغة ، يكمُن في تناسُبه لمقتضيات أحواله ، فإذا كان القرآن الكريم صِفة ربِّنا ــ عزَّ وجلَّ ، فإنَّ القرآن الكريم يعكس ــ في أكشف صُورة ــ علم الله الذي أحاط بكلّ شيء ، ومِن ذلك أحوال النَّفس البشريَّة الذي وجَّه ربنا ــ سُبحانه وتعالى ــ هذا البيان المُعجِز لهدايتها ، وإخراجها مِن الظُّلمات إلى النُّور ، وما تأمَّل مُتأمِّل صادق هذا التناسُب على تنوُّع طرقه وأشكاله إلا رآه رأي العين .

سابعًا : يتوجَّه البيان التام أولا إلى السَّمع ، فإذا قبلته الأذن ، ونفذ منها ، نفذ إلى الوجدان ، فإنْ كان صحيحا بانَ صداه على النَّفس ، وإنْ لم يكن ، لَفَظَه القلب ، فلا يرى له على النَّفس أيّ حال أو أثر .

ثامنًا : بيان مَراتب النُّظوم المُختلفة مِن أجَلّ مَقاصِد البلاغة العربيَّة ، وأعلاها ، فالاطلاع على رُتَب البيان هو الكشْف الحقيقي لمعدن النُّظوم

على اختلافها ، فهو نافذة واسعة يُشْرَف منها على خَصائص البيان وسِمَاته، وإظهار كلّ أحواله وأوصافه ، وتفلية كلّ ذلك ، وتبيانه واحِدة واحدة ، فشأن البيان شأن المَعادن ، مِنها النَّفيس ومنها الرَّديء ، كَما أنَّ البيان حين يقف بجوار قرينه يبين جوهره في أكشف صورة وأظهر مرأى.

تاسعًا : للبلاغة العربيَّة أثر كَبير في تربية الذَّوق ، وتنمية الملَكات ، فالمُدارِس لفُنُون ذلك العِلم شريف القدْر لا يعدَم مِن ذلك عاجِلا أم آجِلا .

فتربية الذَّوق وتنمية الملَكات مِن أجَلّ مَقاصِد البلاغة العربيَّة الرَّئيسة؛ لأنَّ فنُون البلاغة إحدى الآليات التي تُعين كل مبين علَى التعبير الأنسب عمَّا يختلج النَّفس والفؤاد سَواء أكان المُعبَّر عنه مسْموعا أم مقْروءا .

عاشرًا : الذَّوق منه فطري ، ومنه مُكتسب ، وحصوله يُكسِب النَّفس جمالية الشُّعور بأسباب الجمال وألوانه في النَّص الأدبي ، ومِن ثَمَّ فإنَّ مدارسة البلاغة العربية السبب الرَّئيس الذي به يتحصَّل القدر المُكتسَب ، ولذا كانت تربية الذَّوق وتنمية الملَكة مِن أهمّ ما يتوجَّب على الدرس البلاغي تحقيقه في نفس الرَّاغبين . والله تعالى أعلم .

وبعد :

فلا يزالُ الباب مَفتوحًا لِدراسات بلاغيَّة أكثر عُمْقا ، وأوفر حظًّا ، وأَحَدّ بَصَرًا وأصَحّ ، توفِّي الحديث عن مقاصد البلاغة العربية حقَّه مِن الدَّرس والتحليل .

هذا ، واللهَ أدعو أنْ تكونَ هذه الدِّراسة مَحلّ قَبُول ، وأنْ أُجْزى ــ فضلا وإحْسَانًا ــ ومَن أعانَ علَى إخْراجها ، مِن الله تعالَى جزيل الثَّواب ، إنَّه وحده وليّ ذلك والقادر عليه .

فهرس المصادر والمراجع
بعد القرآن الكريم

١	الإتقان للسيوطي ــ تحقيق مركز الدراسات القرآنية ط : وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ــ السعودية .
٢	أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ــ شرح وتعليق : د محمد عبد المنعم خفاجي ــ ط : مكتبة الإيمان ــ المنصورة ــ القاهرة .
٣	الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية د عبد الله عبد الغني سرحان ــ ط : مركز التدبر للاستشارات التربوية والتعليمية ــ الرياض ــ السعودية ــ ط : أولى ــ ١٤٣٣ ه ــ ٢٠١٢ م .
٤	أصول النقد الأدبي ــ أحمد الشايب ــ ط : مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ــ الطبعة العاشرة ــ ١٩٩٤ م .
٥	الإعجاز البلاغي ــ دراسة تحليلية لتراث أهل العلم ــ د / محمد محمد أبو موسى ــ ط : مكتبة وهبة القاهرة ــ ط : ثانية ــ ١٤١٨ ه ــ ١٩٩٧ م .
٦	الإيضاح للخطيب القزويني ــ ضمن شروح التلخيص ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ من دون تاريخ .
٧	الإيضاح للخطيب القزويني ــ وضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : أولى ــ ١٤٢٤ ه ــ ٢٠٠٣ م .
٨	البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي ــ تح : مصطفى عبد القادر عطا ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان .
٩	البَلاغة الصَّوتية فِي القرآن الكريم ــ د / محمد إبراهيم شادي ــ ط : شركة الرسالة للإنتاج والتوزيع والإعلان ــ الدقي ــ القاهرة ــ ط : أولى ــ ١٤٠٩ ه ــ ١٩٨٨ م .
١٠	البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها لعبد الرحمن حسن حبنَّكة الميداني ــ ط : دار القلم ــ دمشق والدار الشامية ببيروت ــ ط : أولى ــ ١٤١٦ ه ــ ١٩٩٦ م
١١	البلاغَة والأثَر النَّفْسيّ ــ دراسة في تراث عبد القاهر الجُرجَاني ــ للباحث : عبد الله عبد الرحمن أحمد ــ رسالة ماجستير ــ مخطوطة ــ كلية اللغة العربية ــ جامعة أم

	القرى ــ السعودية ــ ١٤٢٢ ه ــ ٢٠٠٢ م ــ تحت إشراف الدكتور : صالح سعيد الزهراني .
١٢	البيان والتبيين للجاحظ ــ تحقيق وشرح / عبد السلام محمد هارون ــ ط : مطبعة المدني ــ القاهرة ــ صف الكتاب بطريقة الجمع التصويري : مكتبة الخانجي ــ ط : سابعة ــ ١٤١٨ ه ــ ١٩٩٨ م .
١٣	تاريخ النقد الأدبي عند العرب ــ نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري ــ د / إحسان عباس ــ ط : دار الثقافة ــ بيروت ــ لبنان .
١٤	التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ــ ط : دار سحنون للنشر والتوزيع ــ تونس ــ ١٩٩٧ م .
١٥	التصوير الفني في القرآن ــ سيد قطب ــ ط : دار الشروق ــ القاهرة .
١٦	تنوُّع المُشبَّه به في وصف كلام المحبوبة في العصر العباسيّ (دراسة تحليلية موازنة) للباحث ــ مجلة كلية البنات الإسلامية ــ جامعة الأزهر ــ فرع أسيوط ــ العدد السادس عشر ــ ١٤٤٠ ه ــ ٢٠١٩ م .
١٧	ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني ــ تح : محمد خلف الله أحمد ، و / محمد زغلول سلام ــ ط : دار المعارف ــ مصر ــ ط : ثالثة ــ من دون تاريخ .
١٨	الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ــ تحقيق : عبد السلام محمد هارون ــ ط : مصطفى البابي الحلبي ــ مصر ــ ط : ثانية ــ ١٣٨٤ ه ــ ١٩٦٥ م .
١٩	خزانة الأدب وغاية الأرب لتقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي ــ تحقيق : عصام شعيتو ــ ط : دار ومكتبة الهلال ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٩٨٧ م .
٢٠	خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ــ د عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني ــ ط : مكتبة وهبة ــ القاهرة ــ ط : أولى ــ ١٤١٣ ه ــ ١٩٩٢ م .
٢١	دلالات التراكيب ــ دراسة بلاغية ــ د محمد محمد أبو موسى ــ ط : مكتبة وهبة ــ القاهرة ــ ط : ثالثة ــ ١٤٢٥ ه ــ ٢٠٠٤ م .
٢٢	دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ط : المكتبة التوفيقية ــ الحسين ــ مصر ــ من دون تاريخ .
٢٣	ديوان العباس بن الأحنف شرح وتحقيق : عاتكة الخزرجي ــ ط : دار الكتب المصرية

	ــ القاهرة ــ ١٣٧٣ ه ــ ١٩٥٤ م .
٢٤	ديوان المتنبي ــ ط : دار بيروت للطباعة والنشر ــ بيروت ــ ١٤٠٣ ه ــ ١٩٨٣ م .
٢٥	ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : ثانية ــ ١٤١٤ ه ــ ١٩٩٤ م .
٢٦	شرح ديوان أبي تمام للخطيب التبريزي ــ قدَّم له : راجي الأسمر ــ ط : دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ ط : ثانية ــ ١٤١٤ ه ــ ١٩٩٤ م .
٢٧	شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ــ نشره : أحمد أمين و/ عبد السلام هارون ــ ط : دار الجيل ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤١١ ه ــ ١٩٩١ م .
٢٨	شرح صحيح البخاري لابن بطال ــ علَّق عليه : أبو تميم ياسر بن إبراهيم ــ ط : مكتبة الرشيد ــ الرياض ــ السعودية ــ من دون .
٢٩	صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ــ تح : د / يوسف علي طويل ــ ط : دار الفكر ــ دمشق ــ ط : أولى ــ ١٩٨٧ م .
٣٠	صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري لمحمد ناصر الدين الألباني ــ ط : دار الصدّيق ــ ط : أولى ــ ١٤٢١ هـ .
٣١	الضروري في السياسة لابن رشد ــ مختصر كتاب السياسة لأفلاطون ــ نقله عن العبرية إلى العربية د / أحمد شحلان ــ ط : مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : أولى ــ ١٩٩٨ م .
٣٢	طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول ــ مختارات من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم ــ جمع : عبد الرحمن بن ناصر السعدي ــ ط : دار البصيرة ــ الإسكندرية ــ د ت .
٣٣	عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي ــ ضمن كتاب شروح التلخيص ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ من دون تاريخ .
٣٤	العِقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ــ تح : محمد سعيد العريان ــ ط : المكتبة التجارية الكبرى ــ ١٣٧٢ ه ــ ١٩٥٣ م .
٣٥	العُمْدة في مَحاسن الشِّعر وآدابه ونقْده لابن رشيق القيرواني ــ تح : محمد محي الدين عبد الحميد ــ ط : دار الجيل ــ بيروت ــ لبنان ــ ١٤٠١ ه ــ ١٩٨١ م .

٣٦	عيار الشعر لابن طبَاطبَا العلوي ــ شرح وتحقيق : عباس عبد الساتر ومراجعة نعيم زرزور ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : ثانية ــ ١٤٢٦ ه ــ ٢٠٠٥ م .
٣٧	عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري ــ ط : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ــ نسخة مصورة عن دار الكتب .
٣٨	قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية ــ د / عبد العزيز عبد المعطي عرفة ــ ط : عالم الكتب ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : أولى ــ ١٤٠٥ ه ــ ١٩٨٥ م .
٣٩	كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري . تح : علي محمد البجاوي ــ و/ محمد أبو الفضل إبراهيم ــ ط : المكتبة العصرية ــ بيروت ــ ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م .
٤٠	الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزمخشري ــ ط : دار الكتاب العربي ــ ١٤٠٧ ه .
٤١	لسان العرب لابن منظور الأفريقي المصري ــ ط : دار صادر ــ بيروت ــ ط : أولى ــ من دون تاريخ .
٤٢	المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ــ تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ــ ط : المكتبة العصرية للطباعة والنشر ــ بيروت ــ ١٩٩٥ م .
٤٣	المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي ــ تح : محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون ــ ط : مكتبة دار التراث ــ القاهرة ــ ط : ثالثة .
٤٤	المُستطرَف من كلّ فن مُستظرف لشهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي ــ تح : د / مُفيد محمد قميحة ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : ثانية ــ ١٩٨٦م.
٤٥	معجم التعريفات للسيد الشريف الجُرجاني ــ تحقيق ودراسة : محمد صديق المنشاوي ــ ط : دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير ــ القاهرة ــ من دون تاريخ .
٤٦	المعجم الوسيط ــ ط : مكتبة الشروق الدولية ــ ط : الرابعة ــ ١٤٢٥ه ــ ٢٠٠٤ م .
٤٧	مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للرازي ــ ط : دار الفكر ــ لبنان ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٠١ ه ــ ١٩٨١ م .

٤٨	مِفتاح العلوم للسكاكي ــ تحقيق : د / عبد الحميد هنداوي ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٢٠ ه ــ ٢٠٠٠ م .
٤٩	مقاصد الشريعة الإسلامية للشيخ الطاهر بن عاشور ــ تحقيق ومراجعة : محمد الحبيب ابن الخوجة ــ ط : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ــ قطر ــ ١٤٢٥ ه ــ ٢٠٠٤ م .
٥٠	مقدمة ابن خَلدون للعلَّامة عبد الرحمن بن محمد بن خَلدون ــ اعتنى بالكتاب : هيثم جمعة هلال ــ ط : مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : أولى ــ ١٤٢٨ ه ــ ٢٠٠٧ م .
٥١	مِن جَمَاليات المَعنى ــ حُسْن التعليل ــ د / عيد محمد شبايك ــ ط : دار حراء ــ القاهرة ــ مِن دون تاريخ .
٥٢	مِنْهاج البُلغاء وسِراج الأدباء لأبي الحسن حازم القرطاجني ــ تحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجة ــ ط : دار الغَرب الإسلامي ــ بيروت ــ لبنان .
٥٣	النبأ العظيم ــ نظرات جديدة في القرآن ــ د / محمد عبد الله دراز ــ ط : دار الثقافة ــ الدوحة ــ قطر ــ ١٤٠٥ ه ــ ١٩٨٥ م .
٥٤	نظرية النظم وقراءة الشعر عند عبد القاهر الجرجاني ــ د / محمود توفيق محمد سعد ــ ط : اتحاد الكتاب العرب ــ من دون تاريخ .
٥٥	النقد الأدبي ــ أحمد أمين ــ ط : دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ــ بيروت ــ لبنان ــ من دون تاريخ .
٥٦	نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ــ تحقيق : مفيد قمحية وجماعة ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : أولى ــ ١٤٢٤ هـ ــ ٢٠٠٤ م .
٥٧	الهوامل والشوامل لأبي حيان التوحيدي ومسكويه ــ نشره أحمد أمين و / السيد أحمد صقر ــ ط : شركة الأمل للطباعة والنشر ــ مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة .
٥٨	يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور الثعالبي ــ شرح وتحقيق : د / مُفيد محمد قميحة ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : أولى ــ ١٤٠٣ ه ــ ١٩٨٣ م .